إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٨﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٩﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿٢٠﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢١﴾

شرح الكلمات:

يوم: اليوم: الدهر، يقول الشاعر:

"يوماه يومُ ندًى ويومُ طِعانِ"

أي لا يأتي على الممدوح إلا وقتان، فإما أنه يكون منهمكًا في جود وسخاء أو في قتل أعداء.

كذلك تقول العرب: "يوماه يوم نُعمٍ ويومُ بؤسٍ.. فاليوم ههنا بمعنى الدهر أي هو دهرَه كذلك... وقالوا: أنا اليوم أفعل كذا، لا يريدون يومًا بعينه، ولكنهم يريدون الوقت الحاضر، حكاه سيبويه، ومنه قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.... وقد يراد باليوم الوقتُ مطلقًا، ومنه الحديث: "تلك أيام الهَرْج" أي وقتُه" (لسان العرب)

الفصل: فصَل الشيءَ فصلاً: قطَعه وأبانَه. والفصل: الحاجز بين الشيئين؛ الحدُّ بين الأرضين؛ الحقُّ من القول؛ القضاء بين الحق والباطل. (الأقرب)

ميقاتًا: الميقات: الوقتُ؛ وقيل الوقتُ المضروبُ للشيء؛ الموعدُ الذي جُعل له وقت، وجمعُه المواقيت. (الأقرب)

يُنفَخ: النفخُ: نفخُ الريح في الشيء. (المفردات)

الصُور: صارَ الرجلُ يصُور صورًا: صَوَّتَ؛ والصُور بالضم: القرنُ الذي يُنفَخ فيه. (الأقرب).

والبعض اعتبر الصُور جمع الصُورة، وهي: الشكلُ؛ كلُّ ما يُصوَّر مشبَّهًا بخلق الله من ذوات الأرواح وغيرها؛ النوعُ؛ الصفةُ. (الأقرب)

أفواجًا: جمعُ فوجٍ وهو الجماعة من الناس أو الجماعة المارّة السريعة. (الأقرب)
سُيِّرتْ: سيَّره: جعَله سائرًا؛ وسيَّره من بلده: أخرجه وأجلاه. (الأقرب)
الجبال: جمعُ الجبل وهو: كلُّ وَتَدٍ للأرض عظُم وطالَ؛ خلافُ الساحل؛ سيدُ القومِ وعالِمُهم. (الأقرب)
سرابًا: السراب: ما تراه نصفَ النهار من اشتداد الحر كالماء يلصق بالأرض. وفي الكليات: السراب فيما لا حقيقةَ له كالشراب فيما له حقيقةٌ. (الأقرب)
التفسير: اعلم أن قوله تعالى ﴿يومَ يُنفَخ في الصور﴾ بدلٌ من ﴿يومَ الفصل﴾.
وفتح السماء وكونها أبوابًا يعني، عادةً، نـــزول العذاب إلا إذا كانت هناك قرينة صارفة عن هذا المعنى. فإذا رأى أحد في الرؤيا أن السماء قد انشقت وقد صارت فيها ثقوب، ولم يكن هناك قرينة أخرى، كان المراد اقتراب العذاب. أما إذا رأى أحد أن السماء قد انشقت وأن الملائكة يسبحون الله تعالى فرحين فهو إشارة إلى بعثة نبي.
أما قوله تعالى ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ فاعلم أن السراب هو ما يتراءى لك كالماء على سطح الرمال عند الظهيرة نتيجة انعكاس أشعّة الشمس. فبما أن الجبال تخرج من الأرض، والرمال أيضًا تكون من الأرض، لذا يقول الله تعالى هنا أن دمارًا شديدًا سيحل بالأرض يومًا حتى تخرّ الجبال وتدمر الأرض تمامًا، ذلك لأن الجبال أوتاد الأرض، فإذا خرّت أوتادها شَمَلها الدمار. يبدو أن حرارة باطن الأرض ستشتد مرة أخرى عند القيامة حتى تمدّ الجبال الموجودة على الأرض فتدمّرها بدلاً من أن تكوّن عليها جبالاً جديدة.
لقد بينتُ من قبل أن ﴿يوم الفصل﴾ يعني يوم القيامة كما يعني غلبة القرآن أو غلبة النبي ﷺ. والحق أن ظهور كمالات النبوة أو الوحيِ شيء واحد وإن كان ثمة اسمان.
على كل حال إن يوم الفصل يعني يوم الانفصال، والمراد من قوله تعالى ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ أن يوم الفصل وقت محدد. وقد سبق أن بينتُ أن ﴿يوم الفصل﴾ يعني غلبة الإسلام أيضًا، إلا أن الله تعالى قد أشار بهذه الكلمات إلى أمر

آخر أيضا، وهو أنه تعالى يقول هنا لأهل مكة كما أن محمدًا سيضطر للهجرة من بينكم كذلك فتضطرون للانفصال عنه حين يجعله الله تعالى غالبًا عليكم، فيكون ذلك اليوم يوم الفصل لكم.

وقد أشار الله تعالى إلى هذا الأمر أيضًا في سورة التوبة التي هي في الحقيقة جزء من سورة الأنفال التي تستهلّ بقول الله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۞ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۞ فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(الآيات: ١-٥).

لقد أعلن الله تعالى هنا أنه يسمح للكافرين بالإقامة في مكة أربعة أشهر، وبعد انقضاء هذه المدة لا بد لهم من مغادرتها. وهذا هو يوم الفصل الذي قد أتى على الكافرين والذي قد تم الإعلان عنه بعد فتح مكة. وهذا يعني أن فتح مكة ليس إلا يوم الفصل. وهذا ما يذكّر الله تعالى به الكافرين بقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾.. أي يوشك أن يأتي عليكم ذلك اليوم الموعود الذي تضطرون فيه لمغادرة بيوتكم وأوطانكم.. أي سيأتي يوم لن يكون فيه المسلمون غالبين فحسب، بل سينالون غلبة عظيمة بحيث يأمرون المشركين علنًا بمغادرة مكة إذ لم يعد هناك ما يربط الفريقين. والحق أن مثل هذه الغلبة لا تتيسر في ظروف عادية وإنما تُنال في ظروف غير عادية. لقد استمرت غلبة المسلمين في إسبانيا مدة طويلة، ومع ذلك لم يستطيعوا إخراج المسيحيين منها. وقد نالوا الغلبة في بلاد أخرى أيضًا ولكنهم لم يتمكنوا من إجلاء أهل الأديان الأخرى منها. وقد حكموا الهند زمنًا طويلاً ومع

ذلك لم يقدروا على طرد الهندوس منها. والهندوس قوة كبيرة في الهند اليوم ولكنهم أيضًا لا يستطيعون طرد المسلمين منها، بل ليس بوسع الإنجليز الذين يحكمون الهند اليوم أيضًا أن يأمروا الهنود بمغادرتها. ولكن الله تعالى يقول هنا: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾.. أي يوشك أن ينال المسلمون انتصارًا عظيمًا يكون يوم الفصل بين الحق والباطل، بل يكون يوم الفصل بين المشركين والمؤمنين. وهذا هو المعنى الذي تشير إليه سورة التوبة أيضًا حيث قال الله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.. أي قُولوا للمشركين الذين عاهدتموهم بأنه سيأتي يوم ينال فيه المسلمون غلبة، وتصبحون مغلوبين صاغرين، وعندها لن يسمحوا لكم بالإقامة في مكة أيضًا، بل يقولون لكم اخرجوا من هنا، فتفرّون منها أذلةً مهانين. فقولوا لهم أيها المسلمون قد حان الوقت لتحقُّق هذه النبوءة. وفي هذه الحالة لا يُعتبر قوله تعالى ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إشارةً إلى صلح الحديبية الذي تمّ مع المشركين، وإنما يكون قوله تعالى ﴿عاهدتم﴾ إشارةً إلى العهد المذكور في سورة النبأ، حيث قيل أيها الكافرون، سيأتي يوم تُخرَجون فيه من مكة.

وقد سمّيت هذه النبوءة عهدًا من حيث إن النبي حين يدلي بنبوءة تتعلق بالكافرين، فليس المؤمنون وحدهم الذين يريدون أن يروا تحقّقها بأمّ أعينهم، بل إن الأعداء أيضًا يثيرون الاعتراض إذا لم تتحقق لسبب ما، ومن هنا تُعَدُّ مثل هذه النبوءة نوعًا من العهد. إذًا، فقوله تعالى ﴿عاهدتم﴾ في سورة البراءة إشارةٌ إلى النبوءة المذكورة في سورة النبأ حيث بين الله تعالى أنها قد ثبتت براءة الله ورسوله.. بمعنى أنه لم يبق الآن مجال للمشركين أن يقولوا إن تلك النبوءة لم تتحقق، إذ قد تحقق ما وعدناهم به بأن غلبة المسلمين موشكة وقد اقترب اليوم الذي يصبح فيه المسلمون غالبين عليكم فلن يسمح لكم بالإقامة في مكة بعدها.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾.. أي لا شك أننا وفينا بوعدنا بغلبة الإسلام وطردكم من هذه البلدة، ولكن وجودكم هنا ضروري لبعض الوقت حتى تروا غلبة الإسلام

من ناحية، وحتى يتم طردكم من هنا تحقيقًا للنبوءة، لذا أعطيناكم مهلة أربعة أشهر لتسيحوا في الجزيرة العربية خلال هذه المدة وتروا بأم أعينكم أن كلمات الله قد تحققت، وأن وعد غلبة الإسلام قد أُنجزَ وأن الله تعالى مخزي الكافرين.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾. لقد اختار الله تعالى يوم الحج الأكبر لهذا الإعلان لأنه لو تم في مناسبة أخرى لم يصل إلى العرب كلهم في أربعة أشهر أيضًا. كان العرب يأتون للحج من كل أنحاء الجزيرة لذا اختار الله تعالى مناسبة الحج الأكبر لهذا الإعلان ليصل إلى العرب جميعًا، ولتتحقق بذلك مهلة الأربعة أشهر أيضًا، وليرى المشركون بأم أعينهم غلبة الإسلام في كل طرف وصوب في طريقهم عند العودة بعد هذا الإعلان. والحق أن اختيار هذا التوقيت للإعلان لدليل على أن الرحمة غالبة في تعاليم الإسلام، حيث تم الإعلان في مناسبة جمعت العرب من كل طرف وصوب. وكان مضمون الإعلان أن الله تعالى ورسوله بريء من أن يتهمه المشركون، إذ ليس بوسعهم، بعد رؤية هذه الغلبة العظيمة بأم أعينهم، أن يتهموا الله تعالى بعدم تحقُّق نبوءة الغلبة المذكورة في سورة النبأ؟

ثم يقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.. أي إذا لم تتوبوا أيها المشركون الآن فاعلموا أنكم لم تقدروا على أن تُعجزوا الله في الماضي فأنى لكم أن تُعجزوه في المستقبل.

بعدها يقول الله تعالى للمؤمنين ﴿إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.. وهذا القول الرباني دليل على صحة ما بيّنتُه آنفًا حيث قال الله تعالى من قبل ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾.. فالله تعالى يأمر أولاً المشركين، رغم المعاهدة، بالخروج من مكة، بينما يوصي المؤمنين بعد ذلك بأن يوفوا بكل أمانة بعهدهم مع المشركين الذين تعاهدوا معهم

و لم ينقضوا عهدهم، مما يعني أن هذه المعاهدة هي غير المعاهدة المذكورة من قبل. إن المعاهدة المذكورة في قوله تعالى ﴿إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً...﴾ هي معاهدة دنيوية، أما المعاهدة المذكورة في الآية السابقة فهي معاهدة روحانية متضمنة في وحي الله تعالى ولكنها غير مصرحة، وكأن الله تعالى قال إنه إذا لم يتحقق ذلك العهد فمن حق المشركين أن يعترضوا علينا ويقولوا لِمَ لَمْ يتحقق ذلك العهد. علمًا أن العهد نوعان: أوّلهما ما يكون من طرف واحد كأن يعاهد المرء نفسه أنه سيفعل كذا، وإذا لم يستطع أن يفعل ما فرض على نفسه فلا يحق لغيره أن يقول له: لم لم تفعل ما قلت، وثانيهما ما يكون بين طرفين أو يكون ذا صلة بفريقين، وإذا لم يتحقق فمن حق الطرف الآخر أن يعترض على عدم تحققه ويقول للآخر لقد وعدت بكذا ولكنك لم تفعله. والنبوءات تكون من قبيل النوع الثاني من المعاهدات، فإذا لم يتحقق نبأ من النبوءات فمن حق الكافرين أن يقولوا للمؤمنين إذا كان من عند الله تعالى فلم لَم يتحقق؟

إذًا، فورود جملة ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في الآيتين، وكونُ الله تعالى قد أمر المؤمنين في آية أن يؤتوا المشركين المعاهدين مهلة أربعة أشهر، بينما أمرهم في آية أخرى أن يتموا عهدهم مع المشركين الآخرين، يدل على أن المعاهدة الأولى روحانية وأن المعاهدة الثانية مادية، ويأمر الله تعالى المؤمنين بصدد المعاهدة المادية بعدم نقضها إلا أن ينقضها الكافرون، أما إذا لم ينكثوا عهدهم فعليكم أن تبذلوا كل ما في وسعكم للوفاء به إلى مدته. ويتضح من قول الله تعالى ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾ أن هذه المدة غير محدودة، قد تكون سنتين أو أربعًا أو ستًا، فعلى المسلمين أن يفوا بالمعاهدة أيًا كانت مدتها.

باختصار، إن قوله تعالى ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ يشير إلى غلبة القرآن وغلبة النبي ﷺ حيث أخبر الله تعالى الكافرين أن المؤمنين سيغلبونهم حتى إنهم يخرجونهم من مكة.

أما قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ فيخبر عن موعد تلك الغلبة. والحق أن نبوءة مجيء الناس أفواجًا قد تحقق عند فتح مكة، بل الواقع أن صلح

الحديبية هو الذي قد أدى إلى انقلاب عظيم في الجزيرة العربية، و لم يكن فتح مكة إلا نتيجة لذلك الانقلاب، إذ كان العرب قد بدأوا يدركون بعد صلح الحديبية أنه لم يبق أمامهم إلا خياران؛ إما أن ينضموا إلى محمد ﷺ أو إلى أهل مكة. وبالفعل تحالف بعضهم مع المكيين وبعضهم مع المسلمين.

إذًا، ففي حالة اعتبار نفخ الصور إشارة إلى صلح الحديبية فإن هذه الآيات تعني أنه سيقع حادث هام يؤدي إلى الاضطراب في القبائل العربية، فيفكرون في الدخول في الإسلام علنًا أو الانضمام إلى المكيين. وبالفعل أخذ العرب يدركون عند صلح الحديبية أن الأمر قد استفحل الآن فلا مناص لهم من أن ينضموا إلى محمد ﷺ أو إلى المكيين. فتحالفت بعض القبائل مع النبي ﷺ وبعضهم مع قريش. وهذا يعني أن أساس "يوم الفصل" قد وُضع لدى صلح الحديبية.

وفتح السماء يعني نزول العذاب، وسيعني قوله تعالى ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ في هذه الحالة أنه سينـــزل على الكافرين صنوف العذاب من السماء وأنواع الرحمة على المؤمنين.. وكأن السماء ستصبح أبوابًا.. أبواب ينـــزل منها الخير وأبواب ينـــزل منها العذاب. لا شك أن الخير كان ينـــزل للمؤمنين من السماء قبل صلح الحديبية، ولكنه كان عندها يشبه الشيء الذي ينـــزل من الثقوب، أما بعد صلح الحديبية فبدأ الخير ينـــزل عليهم بكثرة كأنه ينـــزل من أبواب كبيرة. كما أخذ العذاب يحل بالكافرين بكثرة. فالحق أنه بعد ذلك الحادث أخذت الرحمة تنـــزل من السماء بكثرة كما أخذ العذاب أيضًا ينـــزل منها بكثرة.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾. ومن معاني الجبال أسياد القوم وزعماؤهم، وعليه فالمراد من تسيير الجبال أن صناديد العرب وزعماءهم الذين يفخرون بهم سيُخرَجون من بيوتهم، ويصبحون كالسراب، أي يتضح لقومهم أنه لا يوجد بين زعمائهم أحد يصلح لقيادتهم بطريق سليم، بل كلهم فاشلون إزاء محمد ﷺ.

علمًا أن الله تعالى قد استعمل هنا لفظ ﴿سرابًا﴾ لحكمة عظيمة وهي أن السراب يتراءى للناظر عند منتصف النهار، وقد أشار الله تعالى بذلك إلى أن شمس محمد ﷺ

عندما تصعد إلى نصف النهار فستبهرهم بلمعانها، وسيدركون عندها مدى فشل زعمائهم وغبائهم إزاء محمد ﷺ. وبالفعل أخذت علامات انتصار الإسلام تلوح في الأفق إثر صلح الحديبية فورًا، وأكمل فتح مكة عملية الانتصار. ومن أجل ذلك قد بين الله تعالى هنا أنه سينكشف على الكافرين يومئذ أن زعماءهم كلهم سراب إزاء محمد ﷺ وأنهم يدفعون قومهم إلى الخزي والذلة والدمار، وليسوا بقادرين على النهوض بهم. وهذا ما حدث فعلاً.

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢٢﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٣﴾

شرح الكلمات:

جهنم: يقال: بئرٌ جهنّمُ: أي بعيدةَ القعرِ، وبه سُمّيَت جهنّمُ لِبُعْدِ قعرِها. (اللسان)

مِرْصادًا: المرصاد: المكانُ الذي يُرصَد فيه العدوُّ؛ الطريقُ. (الأقرب)

مآبًا: آبَ يؤوبُ مآبًا: رجَع. والمآب: المرجَع والمنقلَب. (الأقرب)

وقال صاحب "المفردات": "الأَوبُ ضربٌ من الرجوع، وذلك أن الأوب لا يقال إلا في الحيوان الذي له إرادةٌ، والرجوعُ يقال فيه وفي غيره."

التفسير: قال قتادة في تفسير هذه الآية: "يعني أنه لا يدخل أحدٌ الجنة حتى يجتاز بالنار، فإن كان معه جواز نجا، وإلا احتُبس" (ابن كثير). إذًا، فإن قتادة يرى أن هذه الآية إشارة إلى جسر الصراط.

أما إذا أُريدَ من جهنم تلك التي تكون في الآخرة فلا بد من الاعتراف بأنها تبدأ في هذه الدنيا نفسها، وإلى الأمر نفسه يشير الحديث النبوي الشريف: "إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم" (البخاري: كتاب الصوم، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه).. أي أن الشيطان يظل نشيطًا في إغواء الناس في الدنيا بحيث لو تغافل المرء قليلاً صرعه الشيطان. غير أن الله تعالى يعلن هنا أيضًا: ﴿للطاغين مآبًا﴾.. أي أن جهنم مقام العصاة المتمردين فقط. وقد أشار الله تعالى إلى المعنى نفسه بقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى

الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾(النحل:١٠٠-١٠١).. أي ليس للشيطان غلبة على الذين يؤمنون بربهم ويتوكلون عليه، إنما يتغلب الشيطان على الذين يصادقونه ويحبونه ويشركونه بالله تعالى. إذًا، فقوله تعالى ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ قد شرحه الرسول ﷺ بقوله إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، أما قوله تعالى ﴿للطاغين مآبًا﴾ فبيّن الله تعالى فيه أن جهنم وإن كانت تهاجم كل إنسان، مؤمنًا كان أم كافرًا، ويكون هجومها على شخص بطريق وعلى آخر بطريق آخر، إلا أنها ليست مصيرًا ومُقامًا إلا للطاغين العصاة. وتدعم الآية الأخرى أيضًا هذا المعنى حيث بين الله تعالى أن الشيطان إنما يتغلب على الكافرين لا على المؤمنين.

فسواء اعتبرنا جهنم طريقًا أو مرصادًا فإنها توصل الإنسان إلى الله تعالى في النهاية. فما لم يختر المرء لنفسه جهنم.. أي طريق المحن والأذى في سبيل الله تعالى.. لم يصل إليه ﷻ، أما إذا كان قد اقترف بعض الذنوب فلا بد له من السير في طريق الأذى بعض الوقت كعقاب، سواء في هذه الدنيا أو في الآخرة، وبعدها سيحظى بلقاء الله تعالى. والله أعلم بالصواب.

علمًا أن كلمة ﴿للطاغين﴾ حال للفظ ﴿مَآبًا﴾، والتقدير: إن جهنم كانت مرصادًا ومآبًا حال كونها للطاغين. أو أن قوله تعالى ﴿للطاغين مآباً﴾ يُعتبر صفةً للفظ ﴿مرصادًا﴾.

لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾

شرح الكلمات:

أحقابًا: الأحقاب جمعُ حُقْب، ومن معانيه: ثمانون سنة، ويقال أكثرُ من ذلك؛ الدهرُ؛ السَّنةُ؛ وقيل: السنون. (الأقرب)

التفسير: قوله تعالى ﴿لابثِينَ﴾ حالٌ لـِ ﴿للطَّاغِينَ﴾، والمعنى أن الطاغين يكونون في جهنم لابثين فيها سنوات أو دهورًا أو قرونًا.

سنتحدث لاحقًا عن هذه الآية فيما يتعلق بالآخرة، إلا أنه فيما يتعلق بهذه الدنيا فإننا نجد أن غلبة الإسلام قد استمرت قرونًا بالفعل. تزدهر بعض الشعوب في الدنيا بسرعة وتُباد بسرعة أيضًا، ولكن غلبة المسلمين استمرت قرونًا حيث ظلّوا غالبين قرابة سبعة قرون بشكل أو بآخر، وإن كان الضعف قد أخذ يتسرب إليهم في القرن الرابع، بل امتدت الفترة التي لم يكن يجرؤ فيها أحد على الوقوف في وجه المسلمين ألفَ سنة، إذ قد بدأت الشعوب الأخرى تتجاسر على الوقوف في وجههم منذ ثلاثة قرون فقط؛ وذلك حين رأت أنها قادرة على التصدي لهم. لقد أخذ المسلمون في الانحطاط منذ القرن السابع عشر الميلادي فوقف العدو في وجههم، أما قبل ذلك فلم يجرؤ أحد على الوقوف في وجههم قرابة ألف سنة، وكانت هذه الفترة بمنـــزلة جهنم الدنيوية لأعداء الإسلام التي ظلوا فيها يحترقون حسدًا وكمدًا.

لقد ذكرتُ عند شرح الكلمات المعنى اللغوي للأحقاب التي مفردها الحُقْب، أما الآن فأتناول تفسيرها.

لقد نقل ابن كثير في تفسيره ما رواه ابن أبي حاتم عن سالم بن أبي الجعد قال علي ابن أبي طالب ﷺ لهلال الهَجَري: ما تجدون الحُقْب في كتاب الله المنـــزّل؟ قال: نجده ثمانين سنة، كل سنة اثنا عشر شهرًا، كل شهر ثلاثون يومًا، كل يوم ألف سنة. (ابن كثير)

وتصبح هذه المدة ثمانية وعشرين مليونا وثمانمئة ألف سنة.

وعن عبد الله بن عمرو: الحُقْب أربعون سنة، كل يوم منها كألف سنة مما تعدّون، رواه ابن أبي حاتم. (ابن كثير)

وتصبح هذه المدة أربعة عشر مليونًا وأربعمئة ألف سنة.

وقد روى ابن أبي حاتم مثله عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعدد من التابعين، إلا أنهم قالوا الحُقْب سبعون سنة. (ابن كثير)

وهذه المدة هي ما يقارب ستة وعشرين مليون سنة.

وهكذا فبضرب هذه الأعداد في العدد المقدّر من كلمة "أحقاب" نعلم المدة الإجمالية لمكوث أهل النار فيها، إذ إن الأرقام السابقة هي قيمة الحقب الواحد.

وعلى كل حال، ومهما كان العدد المفهوم من كلمة "أحقاب"، وسواء أكانت هذه المدة الإجمالية عشرين مليونًا أو أربعين مليونًا أو حتى مئة مليون سنة إلا أنها فترة محدودة في كل حال، وبالتالي ثبت من هذه الروايات أن عذاب جهنم محدود وأنه سينتهي في يوم من الأيام.

وقد شعر المفسرون أيضًا بهذا الأمر، ولذلك تجد مقاتل بن حيان يقول: "إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلا عَذَاباً﴾" (ابن كثير)، وذلك مع أن هذه الآية هي الآية ٣٠ من سورة النبأ نفسها، وقد أجمع المفسرون على نزولها دفعة واحدة، لا على فترات. إذًا فمن غير المعقول أن تنـــزل هذه الآيات من سورة واحدة في وقت واحد ودفعةً واحدة، ثم تنسخ إحداهما الأخرى.

وخالد بن مَعْدان أيضًا اعتبرها منسوخة.

ويقول ابن جرير بعد نقل هذه الروايات: "ويُحتمل أن يكون قوله ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ متعلقًا بقوله ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا﴾، ثم يُحدث الله لهم بعد ذلك عذابًا من شكل آخر ونوع آخر" (ابن كثير).. يعني أن أهل جهنم يلبثون فيها قرونًا لا يذوقون فيها بردًا ولا شرابًا، ثم بعد ذلك أيضًا يمكثون فيها، إلا أن عذابهم سيأخذ شكلاً آخر.

ثم يقول ابن جرير عن جهنم: "والصحيح أنها لا انقضاء لها."

ثم نقل ابن جرير رواية عن سالم قال فيها: "سمعتُ الحسن (البصري) يسأل عن قوله تعالى ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ قال: أما الأحقاب فليس لها عِدّة إلا الخلود في النار. (ابن كثير)

لقد اتضح من هذه الروايات أنه قد خطر ببال هؤلاء جميعًا أن ظاهر هذه الآية يدل على عدم دوام عذاب النار، فظلوا يسعون لتأويلها بحسب عقيدتهم، تارةً باعتبار قول الله تعالى ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ متعلقًا بقوله ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا﴾، وتارةً أخرى باعتبار أن الأحقاب ليس لها عِدّة.

وفيما يتعلق بلفظ ﴿أحقابًا﴾ فليكن معلومًا أن الأحقاب من جموع القلّة؛ بمعنى أنها من الجموع التي يراد به ما بين الثلاثة إلى العشرة. لا شك أن كل جمع قلّة لا يفيد القلة بالضرورة، بيد أنه لا بد من الاهتمام لما وُضع له من معنى القلة، ما لم تصرفه قرينة عن هذا المعنى، أما بدون هذه القرينة فلا يجوز صرفه عما وُضع له، وإلا سيُفتح باب للتأويل يُبعِدنا عن الحقيقة. وهذه القرينة تكون معنوية حينًا؛ بمعنى أن الآيات القرآنية أو الشواهد الأخرى تدل عليها، وتكون ظاهرةً حينًا؛ كأن تدخل على هذه الكلمة "ال" الاستغراقية، أو تكون مضافة إلى كلمة تدل على الكثرة. أما صرف لفظ عن معناه الصحيح الموضوع له لغةً بدون قرينة فهذا غير جائز.

و"الأحقاب" يمكن أن تعني لغةً ما بين ثلاث إلى تسع سنوات. ولو اعتبرنا عدد التسعة حدًّا أقصى لمعنى الأحقاب فسنضربها في ثمانية وعشرين مليونًا وثمانمئة ألف سنة، وهو الحد الأعلى للحقب وفقًا للروايات والذي تم تقديره بثمانين سنة كل يوم فيها يعادل ألف سنة، وذلك إذا أخذنا المعنى الذي بيّنه المفسرون للأحقاب، وهي أعلى قيمة يمكن تقديرها للأحقاب على الإطلاق، وفقًا لتلك الروايات. ولكن عندنا حديث نبوي آخر يدل على أن الرواية التي تذكر أن كل سنة في الآخرة هي كألف سنة ليست قول الرسول ﷺ بل هي – على الأغلب – مما سُمع من اليهود وغيرهم. فقد روى البزاز عن أبي مسلم أبي العلاء أنه سأل سليمانَ التيمي: هل يخرج من النار أحد؟ قال: حدثني نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: "والله لا يخرج من النار أحد حتى يمكث فيها أحقاباً". قال: والحقب بضع وثمانون سنة، كل سنة ثلاثمئة وستون يومًا مما تعدّون." (ابن كثير، ومجمع الزوائد للحافظ الهيثمي: كتاب صفة أهل النار، باب من دخل النار متى يخرج، رقم الحديث١٨٦٣٢)

لقد ثبت من هذا الحديث أن النبي ﷺ كان يعتقد بخروج أهل النار منها بعد مكوثهم فيها أحقابًا، ولكن الذين سبقت الإشارة إلى عقيدتهم يؤمنون بأن مكوثهم في النار أحقابًا يعني أنه لن يخرج منها أحد أبدًا. إذًا، فهذه الرواية تفند أفكارهم وتؤكد أن الرسول ﷺ كان يؤمن بخروج أهل النار منها بعد الأحقاب. أما ما ورد بعد ذلك في هذه الرواية "قال: والحقب بضع وثمانون سنة، كل سنة ثلاثمئة وستون

يومًا مما تعدّون"، فلو اعتبرناه قول الرسول ﷺ فهو أيضًا يؤكد خطأ الذين قالوا إن كل يوم من الحقب كألف سنة، وأنهم قد نقلوا هذا المعنى بعدما سمعوه من اليهود وغيرهم. أما لو كانت هذه الجملة من قول عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – فأيضًا ثبت بقوله "يومًا مما تعدّون" أنه قد أراد بذلك تفنيد موقف الذين قالوا إن كل يوم من الأحقاب كألف سنة. إذًا، فقد ثبت خطأ المعنى الذي ذهب إليه هؤلاء القوم، سواء أكانت هذه الجملة من قول الرسول ﷺ أو من قول عبد الله بن عمر؛ فإنه من الصحابة الأجلاء.

والقرينة الثالثة التي تبطل موقف هؤلاء القوم هي ما رواه سالم بن أبي الجعد عن علي رضي الله عنه حيث ورد أن عليًّا رضي الله عنه قال لهلال الهَجَري كيف تجدون الحقب عندكم؟ مما يدل على أنه لم يرو عن النبي ﷺ معنى خاصًا للأحقاب، ولو كان كذلك لأخبر عليّ رضي الله عنه هلالاً عن ذلك المعنى، بدل أن يسأل هلالاً عنه.

إذًا، فكل هذه الروايات والاستدلالات لا تجيز خروج أهل النار منها فحسب، بل تخبر عن خروجهم منها؛ بيد أن هذه الآية تؤكد أيضًا أنهم سيمكثون فيها مدة طويلة، فحتى لو اعتبرنا الأحقاب عشرة من الحقب، وكل حقب ثمانون سنة، لصارت هذه المدة ثمانية قرون. وهذه المدة ليست بقصيرة أبدًا لأن ساعة واحدة من العذاب تبدو طويلة جدًّا. وقد بينتُ من قبل أن من معاني الحقب القرن وأيضًا الدهر أي الزمن الطويل؛ ولو أخذنا بمعنى القرن لأصبحت هذه المدة عشرة قرون. أما إذا فسرنا الحقب بمعنى الدهر أي الزمن الطويل أصبح العذاب طويلاً جدًّا لقوله تعالى في القرآن الكريم ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(الحج:٤٨)، إذ تصبح الأحقاب عندها عشرة آلاف سنة. ومهما كانت هذه المدة فلا يثبت منها أن عذاب جهنم دائم لا ينقطع. علمًا أن الله تعالى يقول في مكان آخر من القرآن الكريم: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾(المعارج:٥)، فحتى لو اعتبرنا الحُقُبَ خمسين ألف سنة فإن عذاب النار سيظل محدودًا، ولا يثبت أنه غير منقطع.

وفي حالة اعتبار جهنم هنا بمعنى العذاب الدنيوي الذي يحل بأعداء النبي ﷺ فإن هذه الآية تصبح نبوءة بأن أعداء الإسلام سيظلون مغلوبين لفترة تتراوح ما بين مئتين وأربعين سنة أو ثلاثمئة سنة إلى ألف سنة. ذلك أن كلمة الأحقاب التي هي جمع قلّة تدل على الثلاثة إلى العشرة، فلو قلنا إن الأحقاب هنا تعني ثلاثة من الحقب، وأن الحقب هو ثمانون عامًا، وضربنا الثلاثة في الثمانين صار هذا الزمن مئتين وأربعين عامًا، أما إذا ضربنا العشرة في الثمانين صارت هذه المدة ثمانمئة عام، أما إذا اعتبرنا الحقب مئة عام وضربنا المئة في الثلاثة صار هذا الزمن ثلاثمئة، وإذا ضربنا المئة في العشرة صار ألف عام.

ولو قيل إن القول بالمدّتين المختلفتين عن غلبة الإسلام يدل على الإبهام والريبة، مع أنه لا ريب في كلام الله تعالى، فالجواب أنه لا بأس من وجود بعض الإبهام والاحتمال في وحي الله تعالى إلى حد يحقق غرضًا جديدًا، بل يجب أن يوجد فيه، ومثل هذا الإبهام ليس بقبيح بل هو حسن مفيد. وثمة غرضانِ في الإخبار بأن غلبة الإسلام ستمتد إلى ثلاثمئة عام أو ألف عام، أوّلهما أن غلبةَ الإسلام إلى المئتين وأربعين سنة أو إلى القرون الثلاثة كانت مكتملة وعظيمة، حيث كان المسلمون متحدين كما كان العدو ضعيفًا، فظل العدو يحترق حسدًا في هذه الفترة إذ لم يكن المسلمون ضعفاء كما لم يكن عند العدو الخارجي قوة حتى يطمع في الغلبة عليهم. لا شك أن الخلاف قد حصل بين المسلمين بعد انقضاء قرن من الزمان، وانفصلت أسبانيا عن بغداد، بيد أن هذا الخلاف لم يتفاقم بحيث يؤثر سلبيا على ازدهار الإسلام إلا بعد سنة ٢٧٠هـ. أما الفترة الممتدة لمئتين وأربعين سنة أو لثلاثة قرون إلى ثمانية قرون، أو ألف سنة، فأخذت فيها المسيحية تكتسب القوة من ناحية، ومن ناحية أخرى أخذ الضعف يدبّ في المسلمين بوضوح. ومع ذلك لم تكن صحوة المسيحيين وضعف المسلمين قد بلغت من الشدة بحيث تضر بغلبة المسلمين؛ إذ كانت المناطق المتحضرة – أعني آسيا وشمال إفريقيا – لا تزال تحت سيطرة المسلمين كلية. إذًا، فإن نبوءة ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ قد تحققت حرفيا. قد استخدم الله تعالى هنا لفظ ﴿أحقابًا﴾ الدال على عدد مبهم للإشارة إلى نوعية رقي المسلمين

في الفترتين، فالعدد الأقل يشير إلى فترة غلبتهم الكاملة، بينما يدل العدد الأكبر على فترة الغلبة التي ظهرت فيها آثار الضعف في المسلمين، وإن ظلوا فيها غالبين.

أما الغرض الآخر لورود هذا الإبهام فهو أن ثمة أمرا آخر يميّز غلبة المسلمين في القرون الثلاثة الأولى عن غلبتهم في القرون السبعة الأخرى، وهو أن المسلمين ظلّوا عاملين بأحكام الإسلام عمومًا في القرون الثلاثة الأولى، وظلّوا يعاملون الكافرين بالحسنى، أما بعدها فأخذوا يتصرفون كالملوك الآخرين ويعاملون الكافرين بشيء من القسوة. لا شك أن معاملتهم القاسية هذه كانت أفضل مما يعامل به أهلُ الأديان الأخرى غيرهم، ولكنها لم تكن بحسب تعاليم الإسلام. وهذا أحد الأسباب وراء استخدام القرآن هنا كلمة مبهمة دلت على سلوكين مختلفين من قِبل المسلمين في الفترتين، فترة القرون الثلاثة الأولى، وفترة القرون السبعة التالية. وهذا المعنى يكشف لنا أيضًا المراد من قول الله تعالى ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلا عَذَابًا﴾ حيث أخبر الله تعالى أن عذاب الكافرين سيشتدّ بمرور الأيام. وهذا ما حصل بالضبط؛ إذ كان المسلمون يعاملونهم برفق في القرون الأولى بحسب تعاليم الإسلام، أما بعد ذلك فأخذ تأثير التعاليم الإسلامية يذوي في قلوب المسلمين، فمالوا إلى القسوة في معاملة الأعداء، وازداد عذابهم في الحكومات الإسلامية المتعاقبة.

باختصار، إن هذه الآية تعني – نظرا إلى غلبة الإسلام – أن هذه الغلبة ستستمر من ثلاثة قرون إلى ألف سنة، وهذا ما حصل في الواقع. لا شك أنه قد تخلل هذه الفترة هجمات التتر التي أضرت بالمسلمين، ولكنها سرعان ما خمدت؛ حيث دخل هؤلاء في الإسلام، وظل الإسلام غالبا في كل حال. وعليه فإن هذه الآية لا تنبئ عن ازدهار الإسلام وهلاك الكفر فحسب، بل تخبر أيضا أن غلبة الإسلام ستمتد إلى ألف سنة، وبعد ذاك سيرفع الكفر رأسه ويبدأ انحطاط المسلمين. وحيث إن الآيات تفسَّر بمعان عديدة بالنظر إلى قضايا مختلفة، فهذا هو المراد من قوله تعالى ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ بالنظر إلى غلبة الإسلام والرسول ﷺ، أما بالنظر إلى عذاب جهنم، فنقول إن الحقب تعني الزمان، فليس المراد من لبثهم فيها أحقابًا إلا أنهم يمكثون فيها زمنًا طويلاً جدًّا.

كما يتضح من القرآن الكريم أن عذاب جهنم ليس أبديًّا غير منقطع، وعليه فلا يمكن صرف لفظ ﴿أحقابًا﴾ عن معناه الأصلي. وفيما يلي الآيات القرآنية بهذا الشأن:

أوّلاً: قال الله تعالى: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾(القارعة:١٠).. أي أن جهنم هي بمثابة الأمّ لأهلها، فكما أن الجنين يكتمل نموّه في رحم أمه، كذلك سيتم إكمال أرواح أهل النار في جهنم، فينالون فيها خلقًا روحانيًا جديدًا بعد بقائهم في ظلمات ثلاث.

ثانيًا: قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(الأعراف:١٥٧). وما دامت رحمة الله قد وسعتْ كلّ شيء، فلا بد أن تسع أهلَ النار أيضا، فثبت من هنا أن الإنسان سينال النجاة من عذاب النار في نهاية المطاف.

ثالثًا: قال الله تعالى على لسان حَمَلة العرش: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾(غافر:٨). فإذا استحال القولُ بعد هذه الآية أن هناك شيئا هو خارج نطاق علم الله تعالى، فمن المستحيل أيضًا القول أن هناك شيئا لن تشمله رحمة الله؟

رابعًا: قال الله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾(هود:١٠٨). لقد بين الله تعالى هنا أنه ليس غفّارًا فحسب، بل إنه سيغفر فعلاً.

خامسًا: قال الله تعالى: ﴿إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(هود:١٢٠). فإذا كان الله تعالى قد خلق كل إنسان ليتغمده برحمته، فالظن أن البعض سيبقى في جهنم أبد الدهر يتنافى مع هذه الآية. وقد نقل ابن كثير عن ابن عباس ﷺ في تفسير هذه الآية رواية تقول: "للرحمة خلَقهم، ولم يخلقهم للعذاب" (ابن كثير). ومن المحتم أن الذي خُلق لشيء لا بد أن يناله.

سادسًا: قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾(الزلزلة:٨).. أي لو عمِل المرء خيرًا، ولو مثقال ذرة، فلن يضيعه الله تعالى، بل لا بد أن يرى جزاءه، ومن الواضح أنه لن يرى جزاء هذا الخير إلا إذا نال أوّلاً العقاب على ذنوبه، ثم يعفى عنه.

سابعًا: ورد في الحديث أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: "يقول الله ﷻ: إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها، فإن عملها فاكتبوها بمثلها، وإن ترَكها من أجلي فاكتبوها له حسنة، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف" (البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: يريدون أن يُبَدِّلوا كلام الله).

وقد وعد الله تعالى في القرآن الكريم أيضا بالجزاء على الحسنة بعشرة أمثالها إذ قال: ﴿مَثَلُ الَّذينَ يُنْفقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّه كَمَثَلِ حَبَّة أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَة مِئَةُ حَبَّة وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة:٢٦٢). وحيث إن كل إنسان يتحلى بشيء من الخير مهما صغر، فلو حسبنا جزاء حسناته على ضوء هذا الحديث النبوي وهذه الآية القرآنية، فلا يجيز العقل حرمان أي إنسان من النجاة حرمانًا أبديًّا.

للمزيد راجعْ تفسير قوله تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ إلى قوله تعالى ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ في سورة هود في المجلد الثالث من هذا التفسير.

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٦﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٧﴾

شرح الكلمات:

بَرْدًا: البَرْد: نقيضُ الحرّ؛ النومُ، وفي المثل: البرْد يمنع البرْد.. يعني البرد يمنع النومَ. (الأقرب)

وقال الحسن وعطاء وابن زيد: ﴿بردًا﴾ أي رَوحًا وراحةً. (فتح البيان)

حميمًا: الحميم: الماء الحارّ، وهو من الأضداد، إذ يعني الماء البارد أيضا؛ القيظ؛ العَرَق. (الأقرب)

غساقًا: الغَسّاق المُنتن البارد الشديدُ البردِ الذي يُحرِق مِن برْدِه كإحراق الحميم. (اللسان). والغسّاق ما يقطر من جلود أهل النار وصديدهم من قيح ونحوه. (الأقرب)
وِفاقًا: وافَقَ على الشيء وِفاقًا: ضدُّ خالفَ. (الأقرب). والوِفْق: المطابَقة بين الشيئين. (المفردات)

فالمراد من قوله تعالى ﴿جزاءً وِفاقًا﴾.. أي جزاءً مطابقًا للأعمال.

التفسير: قوله تعالى ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا..﴾ حال ثان ﴿للطاغين﴾، حيث كان قوله تعالى ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ الحال الأوّل لهم، والمراد أن الطاغين يكونون في النار حال كونهم لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. أما ابن جرير فقال: إن قوله تعالى ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا﴾ متعلق بـــ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾، بمعنى أن نوعية عذابهم ستتغير فيما بعد. ولكن هذا المعنى باطل بداهة، لأن الآية ستعني عندها أنهم سيتمتعون بعد الأحقاب بالراحة وماء الشرب، مع أنه إذا تيسر لهم الماء والراحة، فأين العذاب؟ لو كان القرآن قد ذكر هنا شرابًا فقط لقلنا إن تعذيبهم لن يزول بشرب الماء، ولكنه ذكر مع الشراب بردًا أيضا، والبرد يعني النوم والراحة أيضا، فيكون المعنى – بحسب ما يذكره ابن جرير – أنهم لن يتمتعوا بالراحة وماء الشرب أحقابًا، أما بعد ذلك فيتيسر لهم الماء للشرب والنوم والراحة أيضا، غير أنهم سيظلون مقيمين في الجحيم. فثبت أن هذا المعنى باطل بداهة.

والدليل الآخر أن الله تعالى قد ذكر هنا ﴿شَرَابًا﴾ منفصلاً عن ﴿بَرْدًا﴾، مما يدل أن ﴿بَرْدًا﴾ لا يعني الماء البارد هنا، بل له معنى آخر، وهو أنه لن تتيسر لهم هناك أسباب الراحة، ذلك لأن من معاني البرد الراحة؛ حيث ورد "البرد: الرَّوح والراحة." (فتح البيان)

وفيما يتعلق بموضوع القيامة فيمكن تفسير قوله تعالى ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا﴾ تفسيرًا ظاهرًا، وهو أنهم لن يجدوا هناك سببًا للراحة، ولا شيئًا للشرب، إلا غسَّاقًا. والغساق كما بينتُ في شرح الكلمات هو "الشيء المنتن" أو "البارد شديد البرد"، أو "ما يقطر من جلود أهل النار وصديدهم من قيح ونحوه". إذًا، فكلمة

﴿غَسَّاقًا﴾ أيضًا تبيّن أن ﴿بَرْدًا﴾ هنا لا يعني إلا الراحة، لأن الغسّاق نفسه يعني البارد الشديد البرودة.

باختصار، لقد بيّن الله تعالى هنا أن الماء الذي يجده أهل النار سيكون حارًّا جدًّا، كما أنهم يُسقون ما يقطر من جلودهم أو صديد جروحهم، أو أنهم يُسقَون ماءً منتنًا آسنًا جدًّا، أو ماءً شديد البرودة تسقط أسنانهم بشربه.

ثم يقول الله تعالى ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾، أي أن هذا الجزاء سيكون مطابقا لأعمالهم تماما، بمعنى أن سلوكهم في الدنيا لم يكن سلوكًا وسطًا، لذا سيجدون في الآخرة من الجزاء ما يماثل سلوكهم.. أي ما يكون حارًّا جدًّا أو باردًا جدًّا؛ وبتعبير آخر إنهم كانوا في الدنيا يستشيطون غيظا أو يعيشون متكاسلين عاطلين، ولم تكن سيرتهم وَسَطًا، فلذلك سينالون عذاب جهنم بهذا الشكل، ويعطَون ماءً مغليًا للشرب أحيانا، وأحيانا ماءً باردًا جدًّا. أما الماء البارد الذي يجد شاربه فيه متعة وراحة، فلن يكون له أثر في جهنم. وهذا هو الفرق المميز بين الإسلام والكفر- أعني الأديان الأخرى - فيما يتعلق بالأخلاق، فإن الإسلام يعلّم السلوك الوسط، ولكن لا يوجد هذا التعليم في غيره من الديانات. فمثلاً تقول اليهودية: "نَفْسًا بِنَفْسٍ، وَعَيْنًا بِعَيْنٍ، وَسِنًّا بِسِنٍّ، وَيَدًا بِيَدٍ، وَرِجْلاً بِرِجْلٍ، وَكَيًّا بِكَيٍّ، وَجُرْحًا بِجُرْحٍ، وَرَضًّا بِرَضٍّ" (الخروج ٢١: ٢٣-٢٥). أما المسيحية فتقول: "مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضًا" (متى٥: ٣٩). فترى أن إحدى الديانتين تميل إلى القيظ فقط أي إلى الإفراط، والأخرى تميل إلى الزمهرير فقط أي إلى التفريط. فيكون جزاء هذه الأعمال الموغلة في الإفراط أو التفريط جزاءً مماثلاً لها، فيكون بعضهم في حميم يغلي، والآخرون في بردٍ شديد. ولكن الإسلام يأمر بسلوك الطريق الوسط في جميع أحكامه، فيأمرنا أن نرحم عند مقتضى الرحمة، وأن نعاقب عند مقتضى العقاب. يقول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾(الشورى:٤١).. أي يجب معاقبة الظالم على سيئته بقدرها فقط، ولكن الذي يعفو عن الظالم بشرط أن يكون في العفو إصلاح له فسيجد جزاء عفوه عند الله تعالى حتمًا.

أما إذا اعتبرنا هذه الآيات تتحدث عن القرآن الكريم والرسول ﷺ، فنفسّرها تفسيرًا روحانيا كما فعلنا من قبل.. أي أن أعداء الإسلام لن يجدوا الراحة أبدًا، ولن تنعَم قلوبهم بالسكينة أبدًا، فكلما رأوْا فشلهم إزاء الإسلام أصابهم الإحباط والقنوط حينًا، وحينًا هاجوا ضد الإسلام وهاجموه كالمجانين.

إنما حالة الحميم والغساق هي أن الإنسان يهيج حينًا فيتصرف نتيجة تهوُّره كالمجانين، وحينا آخر ينهار فاقدًا الهمة، وفي كلتا الحالتين لا يحالفه النجاح؛ إذ لا يمكن أن ينتصر من يتهور ويُغير كالمجانين، كما لا يحالف النجاحَ مَن يفقد القدرة على العمل من شدة اليأس والقنوط.

ولكن الله تعالى يخبر أيضًا أن أعداء الإسلام سيعودون إلى صوابهم بعد مرور أحقاب فيشنّون على المسلمين هجمات منظمة، وحيث إن المسلمين يكونون قد أسخطوا الله تعالى بسوء أعمالهم في ذلك الزمن من ناحية، ومن ناحية أخرى تكون هجمات الكفار منظمة، فينهزم المسلمون أمام الكافرين.

إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٨﴾

شرح الكلمات:

لا يَرْجُون: رجا الشيءَ: أمّلَ به؛ خافَ. (الأقرب)

حسابًا: الحسابُ: العَدُّ. (الأقرب)

التفسير: ستعني هذه الآية، نظرًا إلى موضوع الآخرة، أنهم لا يوقنون بالبعث بعد الموت، فلا يأتون أعمالا تنفعهم في الآخرة، وإنما الحافز وراء أعمالهم هو الدنيا، وحيث إن هذا الحافز غير صحيح، فلا يوفَّقون لفعل الخيرات.

علمًا أن الرجاء يعني الأمل والخوف أيضًا، وكلا المعنيين ينطبقان على الآخرة، والمراد أنهم لا يخافون العقاب على سوء أعمالهم، ولا يأملون أن يُثيبهم الله على حسناتهم.

إن من محاسن القرآن الكريم أنه يستعمل كلمات تدل على معان عديدة في وقت واحد، كما هو الحال في كلمة ﴿يرجُون﴾، حيث يدل الرجاء على الأمل والخوف كليهما. والحق أن الفساد يتطرق إلى أعمال الإنسان لسببين؛ إما أنه لا يخاف أي عقاب على سوء أعماله، أو أنه لا يوقن بأي ثواب على حسناته؛ وقد أشار الله تعالى إلى الأمرين كليهما بقوله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾.. أي أنهم كانوا لا يخافون أن يُحاسَبوا على سيئاتهم، كما كانوا لا يأملون أن يثابوا على حسناتهم.

كلا المعنيين للرجاء يتحقق فيما يتعلق بهذه الدنيا أيضًا، بمعنى أنهم لم يُقيموا صلةً بالقرآن الكريم ولا بمحمد ﷺ، واستوجبوا غضب الله وقهره لأنهم لم يخافوا العقاب على سوء أعمالهم، إذ قالوا لا نخاف أحدًا لنتخلى عن هذه الأعمال، وفي الوقت نفسه لم يأملوا الثواب على حسناتهم، فلم ترغب قلوبهم في الصلاة والصوم وغيرها من أحكام الإسلام.

أما بالنسبة إلى معنى غلبة الإسلام، فستعني هذه الآية أنهم سيُبغضون الإسلام جدًّا ساعين للقضاء عليه وغير مكترثين بأي خطر، وفي الوقت نفسه لن يأملوا النجاح الكامل، بل سيستولي اليأس على قلوبهم ويقولون في أنفسهم أن الكفر لن ينتصر الآن. والذي يصاب باليأس والقنوط لا يتصرف إلا بإحدى طريقتين؛ إما أنه يهاجم في ثورٍ كالمجانين، أو يجلس عاطلاً لا يحرك ساكنا من غلبة اليأس.

وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٩﴾

شرح الكلمات:

وكذّبوا بآياتنا كِذّابًا: كذّب الأمرَ تكذيبًا وكِذّابًا: أنكرَه وجحَده. (الأقرب)

التفسير: المراد من قوله تعالى ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ أنهم ينكرون آياتنا بشدة، أي أنهم لا يميلون إلى الإيمان نتيجة تكذيبهم الشديد لآياتنا.

لو اعتبرنا الحديث هنا عن الذين كفروا بدعوة الإسلام في أوائلها فستعني هذه الآية أنهم قد انحرفوا عن الصراط المستقيم لأنهم لم يصدّقوا بأنبائنا عن غلبة الإسلام وقيام

القيامة. وينطبق هذا المعنى على القيامة من حيث إن إنكارهم إياها أدى بهم إلى هذا الحال. بينما لو اعتبرنا هذه الآية تتحدث عن القرآن الكريم أو الرسول ﷺ، فالمراد أنهم لقوا هذا المصير لأنهم كانوا لا يصدّقون بالمعجزات التي ظهرت على يد محمد ﷺ، أو أنهم يكفرون بآيات القرآن الكريم بشدة لأن فطرتهم الفاسدة لا تنسجم مع كلام الله تعالى.

وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾

شرح الكلمات:

أحصيناه: أحصى الشيءَ إحصاءً: عَدَّه (الأقرب).

كتابًا: الكتاب: المكتوب؛ ما يُكتَب فيه؛ القَدَرُ؛ الحُكمُ؛ الفرضُ؛ الدواةُ. (الأقرب)

التفسير: أي لقد قدّرْنا كلَّ شيء أحسنَ تقدير، أو قد حفظنا كل شيء في مكان ذي قدر، أي حفظناه حيث لا يضيع منه أبدًا. وبالفعل نجد أنه ما من عمل من أعمال الإنسان إلا يظل محفوظا بشكل أو بآخر، ولا يضيع أبدًا، وليس أدلَّ على ذلك من المذياع؛ حيث نجد شخصا ينطق بكلمة من مسافة آلاف الأميال، فتصل إلينا فورًا، ونسمعها وكأنه يتكلم جالسًا بيننا. وأرى أنه ليس بمستبعَد أن تتطور العلوم بحيث يتمكّن العلماء من اختراع جهاز يستطيعون به تسجيل الأصوات من الأزمنة الغابرة، وعندها سنتمكّن من سماع صوت رسول الله ﷺ وهو يتحدث بالأحاديث التي نقرؤها في الكتب. وهذا الأمر لا يبدو مستحيلاً بالنظر إلى مخترعات هذا الزمن، فإن العلم قد تطور اليوم تطوّرًا كبيرًا، ومن الممكن أن يخترعوا في المستقبل جهازًا كهذا ويتمكّنوا به من ضبط الأزمنة الغابرة أيضًا، فنسمع أصوات الأولين. فمثلاً إذا أردنا سماع أصوات أُناس عاشوا في سنة معيّنة أو قرن معيّن نضبط الجهاز على تلك السنة من القرن ونسمع أصواتهم. ليت الدنيا ترجع إلى الحق نتيجة هذا التطور التقني.

فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

شرح الكلمات:

عذابًا: العذاب: كلُّ ما شَقَّ على الإنسان ومنَعه عن مراده. وفي "الكليات": كلُّ عذاب في القرآن فهو التعذيب، إلا ﴿وَلْيَشهَدْ عذابَهما طائفةٌ﴾، فإن المراد الضربُ. (الأقرب)

وورد في "المفردات": "العذاب: هو الإيجاع الشديد. وقد اختُلف في أصله، فقال بعضهم: هو من قولهم: عذَب الرجلُ، إذا ترَك المأكل والنوم، فهو عاذب وعذوب، فالتعذيب في الأصل هو حملُ الإنسان أن يعذب أي يجوع ويسهَر. وقيل أصله من العَذْب، فعَذَّبْتُه أي أزلتُ عَذْبَ حياته." (أي حلاوتها)

التفسير: ترسم هذه الآية حال الأمم المقهورة في الدنيا، وليس المراد منها عدم زوال العذاب عنهم أبدا، بل المعنى أنه كلما سعَت الشعوب المقهورة لحريتها ازداد عذابها، وضاعت جهودها وابتعدت عن هدفها المنشود، إلا أن يكون زمنُ غلبتهم من جديد قد حان. ولذلك نرى في هذه الحرب العالمية أن الإنجليز ينصحون أهل بلجيكا وفرنسا أن لا يستعجلوا بالثورة ضد الألمان وإلا ازدادت محنتهم. وقد رأينا أن هؤلاء كلما حاولوا التحرر زادهم الألمان بطشًا وتعذيبًا. إذن فقوله تعالى ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلا عَذَابًا﴾ يعني أنه في زمن غلبة الإسلام ستضيع جهود الكافرين كلها، حيث يحذرهم الله تعالى قائلاً لو بقيتم صامتين سلمتم، أما إذا خرجتم متهورين لمحاربة المسلمين فستضرون أنفسكم ولن تضروا الإسلام والمسلمين شيئًا.

وهذا المعنى ينطبق على القيامة أيضًا؛ ذلك أن الوقت يزيد المرء أذًى، فمثلا إذا أصيب بالحمى ساءت حالته يومًا فيومًا؛ وإذا طالت فترة الحمى تدهورت صحته تمامًا. كذلك كلما طالت فترة العذاب يوم القيامة زادت وطأة العذاب عليهم.

إذًا، فهذه الآية لا تعني أن لا نجاة لهم من عذاب يوم القيامة أبدًا، بل المراد أنهم يزدادون تعذيبًا بطول العذاب، شأن المريض الذي يزيده طول مرضه أذى وضعفا.

بيد أن العكس يحصل أحيانا، حيث يعتاد المرء العذاب إذا طال، وقد عالج الله تعالى هذه القضية أيضًا، حيث صرح في آية أخرى ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾(النساء:٥٧).. أي كلما اعتادوا العذاب لطوله أعطاهم الله جلودًا أخرى ليشعروا بالعذاب.

باختصار، لا يعني قوله تعالى ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلا عَذَابًا﴾ أن عذابهم لا ينتهي أبدًا، بل المراد أنه إذا انتهى نوع من العذاب بدأ نوع آخر منه، ولن يكون هناك انقطاع فيه ما لم يأت وقت غفرانهم تمامًا.

أما نظرًا إلى هذه الدنيا فيعني قوله تعالى﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلا عَذَابًا﴾ أن المسلمين سيزدهرون يومًا فيومًا، وبالتالي يزداد الكافرون والمشركون ضعفًا.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾

شرح الكلمات:

مفازا: قد يكون المفاز مصدرًا لفازَ يفوزُ، أو ظرفَ مكان. يقال فازَ مِن مكروه: نجا؛ وفاز بخير: ظفِر به. (الأقرب)

وفي المفردات: "الفوز الظفرُ بالخير مع حصول السلامة".

فقوله تعالى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ يعني: ١- أنهم سيظفرون بكل خير وينجون من كل مصيبة، ٢- أن الله تعالى سيقيمهم مقامًا ينجون فيه من كل مصيبة وأذى ويحوزون فيه على كل بركة وفلاح. وهذا إشارة أولاً إلى ذلك المقام الذي ينالونه بعد البعث من الموت حيث وعد الله المتقين بأنهم لن يروا في الآخرة أذى، ولن ينقصهم هناك خير، بل ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾(الشورى:٢٣)؛ كما أنه إشارة إلى ما يناله المتقون في هذه الدنيا، حيث وعدهم الله تعالى وقال ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾(الرحمن:٤٧).. أي أن الذي يخاف الله تعالى يهيئ الله له أسباب الجنة في هذه الدنيا كما يهيئها له في الآخرة أيضا.

التفسير: لقد سبق أن بينت أن هذه السورة تتحدث عن غلبة الإسلام وغلبة القرآن أيضا، وعليه فهذه الآية تنبئ بأن المؤمنين سينجون من كل مكروه، وسيُعطَون ديارًا تكون بمثابة مقام النجاح لهم. لقد أُدلي بهذا النبأ في وقت لم يكن فيه للمسلمين ملاذ. لقد سبق أن بينتُ أن هذه سورة مكية، بل هي من أوائل ما نزل من القرآن، حين لم يكن عدد المسلمين قد تجاوز عشرة أو اثني عشر شخصًا، والكافرون يعذبونهم تعذيبًا يفوق التصور. فمن الثابت تاريخيا أن الكافرين كانوا يُلقُون العبيد الذين أسلموا في فجر الإسلام على الرمال المحرقة وذلك في بلاد حارة كالجزيرة العربية ليردوهم عن دينهم، ولكنهم كانوا يرفضون البراءة من الإسلام، فكان الكافرون يزيدونهم عذابًا بوضع أحجار ساخنة على صدورهم، بل بالصعود على صدورهم أحيانا. وفي بعض الأحيان كانوا يربطون بعضهم بالحبال ويجرّونه في شوارع مكة. علمًا أن أهلها كانوا يضعون أحجارًا بجانب جدران منازلهم لحمايتها من مياه الأمطار الجارفة، وكان الكافرون يجرّون المسلمين على هذه الأحجار حتى كانت أبدانهم تنـــزف دمًا. وكان خبّاب بن الأرت أحد هؤلاء الصحابة العبيد الذين تعرضوا للتعذيب الشديد. ففي أيام الفتوحات الإسلامية سأله مرة عمر ﷺ عن الأذى الذي لقيه على أيدي المشركين، فكشف ظهره الذي لم يكن يبدو كجلد إنسان، فأخذت عمرَ حيرة فسأله: أجلْدُك مصاب بمرض؟ فأجاب: هذا ليس مرضًا، بل كان الكافرون يجرّونني على الحجارة، فتغيّرَ جلدي من كثرة الجروح (أُسد الغابة: خباب بن الأَرَتّ، والطبقات الكبرى: بلال بن رباح، والكامل لابن الأثير، والسيرة الحلبية: استخفاؤه ﷺ وأصحابه في دار الأرقم).

هذا ما تعرض له الصحابة في أوائل الإسلام. أما الرسول ﷺ فكان لا يستطيع أن يصلي علنًا، بل كان يجمع بعض الصحابة في بيت أم هانئ، فيصلّي بهم ويعلّمهم الدين والقرآن؛ إذ كان من المستحيل أن يصلّي أو يتكلّم عن الدين أو يقرأ القرآن علنًا أو حتى في فناء بيته، لأن كل هذه الأمور كانت تُعتبر جرمًا. وعندما اشتدت الفظائع أخذ الصحابة يهاجرون من مكة بعد أن استأذنوا الرسول ﷺ (الطبقات الكبرى: ذكرُ إذن رسول الله ﷺ للمسلمين في الهجرة). وذات مرة خرج أبو بكر

ﷺ مهاجرًا، فلما خرج بمتاع سفره لقيه ابنُ الدَغِنة وهو أحد زعماء مكة، وسأله: أين تذهب؟ فقال: أهاجر من وطني لأن قومي يعادونني ولا يمنحونني حرية دينية. فقال: كيف تعيش بسلامٍ البلدةُ التي يخرج منها شخص مثلك؟ لا تخرج منها فإني مجيرك. ثم أعلن بين الناس أن أبا بكر في جواره. والعرب، رغم كبريائهم وغطرستهم، كانوا يتحلّون بميزة عظيمة أنه إذا أجار أحدهم امرأً لم يتعرضوا له بأذى، وإذا حاول أحد إيذاءه منعوه جميعا. فعاش أبو بكر ﷺ في مكة مرتاحا مطمئنا بعد أن أجاره ابن الدغنة. وكان أبو بكر رجلاً بكّاءً عند تلاوة القرآن الكريم، وبينما كان يقرأ القرآن في فناء بيته ذات يوم غلبت عليه الرقّة وأخذت العبرات تتحدر من عينيه. ومن عادة الأولاد والنساء الاجتماع والتفرج على كل جديد، وبكاءُ الإنسان يثير انتباه الآخرين؛ وكانت قراءة القرآن أمرًا جديدًا لهم، فاجتمعوا إعجابًا بقراءته المصحوبة بالبكاء، وأخذت النساء يذكرن الإسلام بخير. فذهب القوم إلى ابن الدغنة، وقالوا له: لقد ألقيتنا في ورطة بإجارتك لأبي بكر، فقد فُتنت نساؤنا وأولادنا بقراءته للقرآن، ولو استمر الأمر على هذا المنوال لدخل الحي كله في الإسلام؛ فإما أن تمنعه من قراءة القرآن عاليًا، أو تسحب ذمتك منه. فجاء ابن الدغنة أبا بكر وأبلغه شكوى القوم الشديدة، وبأنهم يخافون أن يسلم أولادهم ونساؤهم، طالبًا منه أن يكفّ عن القراءة عاليًا، وأن يقرأ القرآن داخل بيته، وإلا فسيضطر لسحب ذمّته. فأجاب أبو بكر: يمكنك أن تتبرأ من ذمتي، لأني أفضّل ذمة الله وذمة رسوله على ذمتك. (تاريخ الخميس ج ١ هجرة أبي بكر إلى الحبشة، والبخاري: كتاب بنيان الكعبة، باب هجرة النبي ﷺ)، فخرج ابن الدغنة وأعلن أن أبا بكر لم يعُدْ في جواره. ثم تراجع أبو بكر عن الهجرة، وسأل الرسولَ ﷺ أن يصطحبه عندما يهاجر، فوافق ﷺ على ذلك. (البخاري، كتاب مناقب الأنصار)

هذه هي الأوضاع التي كان يعيشها المسلمون في مكة، ورأيي أنه لو جُمعت وقائع اضطهاد المسلمين على يد أهل مكة لبلغت المئات، مما يدل على مدى الاضطهاد الذي لاقاه المسلمون، كما يُعلّمنا كيفية وكمية التضحية التي يجب أن نقدمها في سبيل الدين. وفي تلك الفترة التي كان المسلمون يعيشون فيها في أذًى شديد أعلن

الله تعالى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾.. أي أن المسلمين المتقين سينجون من الاضطهاد حتمًا؛ لأن الله تعالى سيدفع عنهم هذا الظلم، وسيعطيهم تلك الأماكن التي لن تمسّهم فيها هذه المكاره كلها، بل سيحالفهم النجاح ويفتح الله عليهم أبواب الراحة ورغد العيش. وقد جعل الله تعالى أرض الحبشة المفازَ الأول للمسلمين تحقيقًا لهذا الوعد، فهاجر إليها المسلمون ومتَّعهم الله تعالى هناك بأسباب الراحة. علمًا أن هذه السورة هي من أوائل ما نزل في مكة – حيث نـــزلت قبل هجرة المسلمين إلى الحبشة بسنتين أو ثلاث، وهذه الهجرة قد تمت في السنة الخامسة من البعثة (الكامل لابن الأثير، الجزء الأول، ذكر الهجرة إلى الحبشة). فثبت أن أول مقامِ فوزٍ ناله المسلمون بحسب قوله تعالى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ هو أرض الحبشة. وكم هي رائعةٌ آيةُ النصرة والتأييد التي أظهرها الله تعالى في أرض الحبشة! لقد أراد العدو مطاردة المسلمين في الحبشة أيضا كيلا ينعموا بالراحة والطمأنينة في تلك البلاد أيضا، ولكن الله الذي كان قد وعد المتقين بأن ينقذهم من الأذى ويأخذهم إلى حيث ينعمون بالطمأنينة، أحبطَ أهلَ مكة في مسعاهم، وعاش المسلمون في أرض الحبشة في عز وراحة وفقًا لوعده تعالى.

ورد في التاريخ أن المسلمين لما هاجروا إلى الحبشة بعث أهل مكة وراءهم عَمْرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، مطالبين مَلِكَ الحبشة بإعادتهم باعتبارهم عبيدًا لهم فرّوا من أسيادهم، وأنه إذا أجارهم الملك فسوف تفسد العلاقات بين الطرفين. فذهب الاثنان إلى الحبشة مع هدايا كثيرة ليقدّموها للملك ولوزرائه وللقسيسين. فأكرمهم الملك في أول الأمر، لكنهم لما قالوا له إن هؤلاء المسلمين قد فروا من عندهم، وأن عليه أن يرجعهم إليهم، وشفع لهم إليه الوزراء أيضا، قال الملك إنه لا يحق له طرد أحد من المسلمين من بلده ما لم يدعُهم ويعرف موقفهم. فدعاهم إلى البلاط وسألهم عن عقائدهم. فتقدم الصحابي جعفر بن أبي طالب ﷺ، وقرأ آيات من الذكر الحكيم تتحدث عن عقائد المسلمين بما فيها عقيدتهم عن المسيح عليه السلام. فقال الملك: لا أجد في هذه العقائد بأسًا. ورجع الرئيسان القرشيان إلى بلاط الملك في اليوم التالي وقالا: أيها الملك، إن هؤلاء المسلمين يسيئون إلى المسيح. فطلب

الملكُ المسلمين وسمع منهم موقفهم تجاه المسيح عليه السلام، ثم أمسك بعود وقال: لا تختلف عقيدتي في المسيح عن عقيدتهم قدر هذا العود. فاستاء حاشية الملك من قوله جدًّا، فلما وجدهم منـــزعجين قال لهم: لقد مات أبي وأنا صغير، فساعدتم عمي في محاولة الاستيلاء على العرش، فوهب لي ربي قوة بفضله ومكّنني من إلحاق الهزيمة بكم، وآتاني العرش. فكيف لا أظل موقنًا بنصرة الله الذي رفعني على العرش وأفشل عدوي في نواياه رغم قلة حيلتي؟ إنه لمن العار أن لا أكون عونًا لعباده المظلومين بعدما منحني القوة. فلن أُخرجهم من بلدي وإن ساءكم هذا. ثم ردّ الملكُ الهدايا التي أتى بها هذان الزعيمان القرشيان، فرجعا خائبين. (تاريخ الخميس، ج ١ ص ٢٨٩-٢٩٢)

إذًا، فإن الصحابة قد شاهدوا في أرض الحبشة مشهدًا رائعًا لتحقُّق قول الله تعالى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾، ورأوا بأمّ أعينهم كيف حقق الله تعالى وعده بأنه سيأخذهم إلى حيث ينجون من كل مكروه، وينعمون بالراحة والسكينة.

والمشهد الثاني لتحقق هذا الوعد الرباني شوهد في المدينة حين هاجر إليها المسلمون وصرف الله إليهم أهلها. في البداية جاء نفرٌ من أهل المدينة إلى مكة للحج، فلما سمعوا عن دعوة الرسول ﷺ آمنوا به. وفي السنة التالية جاء من المدينة وفد آخر من الحجاج وآمنوا به ﷺ. وفي السنة التالية بعث أهلها إلى الرسول ﷺ وفدًا يضم اثنين وسبعين شخصًا، فعقدوا معه معاهدة حيث تعاهدوا معه فيها بأنه لو أغار العدو عليه أو على أصحابه وهو في المدينة فسيقاتلون عنه. فهاجر النبي ﷺ إلى المدينة بحسب هذه المعاهدة. (السيرة لابن هشام، بدء إسلام الأنصار)

ثم لحقهم إلى المدينة المسلمون الآخرون الذين كانوا قد هاجروا إلى الحبشة من قبل، وقد سُمّي هؤلاء أصحاب الهجرتين. (البخاري، كتاب المغازي)

أما دفاع أهل المدينة عن النبي ﷺ فهو باب رائع من التاريخ وبرهان ساطع على صدق النبوءة القرآنية الواردة في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾.. أي أننا سنعطي المتقين مكانًا ينجون فيه من أنواع الأذى وينالون فيه كل نجاح. فكانت الحبشة المفاز الأول، وكانت المدينة المنورة المفاز الثاني. والواقع أن السنوات الأولى

من تاريخ الإسلام إنما هي شرح لهذه الآية، وأن الهجرة إلى الحبشة والأيامَ الأولى في المدينة لدليل ساطع على تحقُّق النبأ الوارد في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾.

والمعنى الثاني لقوله تعالى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ أننا سنجعلهم فائزين، وهذا المعنى أيضا قد تحقّقَ في المدينة. والواقع أنه لم تكن المدينة وحدها دليلا على تحقق هذه النبوءة، بل قد أصبحت الجزيرة العربية كلها، بل العالم الوسطي كله، فيما بعد دليلاً على فوز المسلمين ونجاحهم. فكل أمة خرجت لمحاربتهم هُزمت، وكل قوة اصطدمت بهم ذلّت، حتى فُتحت خزائن كسرى وقيصر ووقعت في أيدي المسلمين. كانت المدينة قرية صغيرة، ولم يكن المسلمون آمنين فيها حتى في بيوتهم، ولذلك عقدوا مع اليهود معاهدات كيلا يغدروا بهم ويزيدوهم ضعفا. إن هذه القرية الصغيرة أصبحت فيما بعد مركزًا للعالم، وكلما صدر أمرٌ منها ارتعدت الدنيا كلها ولم تقدر على رفضه. ثم إن المدينة المنورة هي القرية التي جُلبتْ إليها كنوز كسرى وقيصر في يوم من الأيام لتوزَّع على المسلمين، حتى وُضعت أساور كسرى الذهبية في يد الصحابي سراقة بن مالك ﷺ. كان النبي ﷺ قد أخبر سراقة أثناء الهجرة إلى المدينة أني أرى أساور كسرى في يدك. ولما دُمّرت إمبراطورية كسرى جيء بأسورته فألبسَ عمرُ ﷺ سراقةَ هذه الأسورة رغم تردّده في لبسها، وذلك لتتحقق نبوءة الرسول ﷺ (الإصابة، ج ٣ سراقة بن مالك). فشتّان بين ما كانت عليه تلك القرية في أولها وبين ما كانت عليه حين أُلبست فيها أسورة كسرى في يد صحابي فقير فيها. وكما سبق أن بينتُ أن كلمة ﴿مفازا﴾ تنطبق بمعناها الأول – أي مكان النجاة من الهلاك – على الحبشة والمدينة كلتيهما، أما بمعناها الثاني – أي الفوز والنجاح – فتنطبق على المدينة فقط. إذًا، فقوله تعالى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ كان نبأً بأننا سنعطي المسلمين المدينة المنورة التي ستكون مكان فوزهم ونجاحهم. فالحق أن هذه الآية – مع كونها نبوءة عن الهجرة الأولى أي الهجرة إلى الحبشة – كانت نبوءة عن الهجرة الثانية وهي الهجرة إلى المدينة بشكل أوضح وأروع.

لقد تأثر أحد الكتاب الأوروبيين من أوضاع المسلمين بُعيد هجرتهم إلى المدينة المنورة لدرجة أنه قال في كتابه: مهما سمّيتم محمدًا وأصحابه إلا أنني حينما أفكّر أن هناك مسجدا صغيرا في المدينة سقفه من سعف النخل تبتلّ أرضيّتُه كلما أمطرت السماء، فتتلطخ جباه المصلين وأرجلهم بالوحل، ويجلس على أرضه التي لا حصير عليها أناس لا يوجد على رؤوسهم غطاء ولا على أبدانهم ثياب كافية، وهم يتشاورون فيما بينهم حول فتح العالم بثقة ويقين.. كأن فتح العالم أمر عادي عندهم، ولكنهم موقنون بذلك لأنهم يؤمنون أنه وعد من الله تعالى ولن يُخلَف أبدًا؛ ثم إنهم يفتحون العالم فعلاً. عندما أرى هذا كله فإن قلبي يرفض أن أعتبر هؤلاء كاذبين مخادعين.

إذًا، فإن النبوءة التي تضمنها قوله تعالى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ – أي أنه تعالى سيهب المسلمين مكانا يكون منطلقًا لفتوحاتهم وانتصاراتهم؛ ينجيهم أولاً من كل مكروه، ثم يكتب لهم الفوز والنجاح كله – لم تتحقق بشكل أروع وأقوى في أي مكان سوى المدينة، إذ لا نجد مكانا أصبح مركزا للإسلام مثلها.

قد يقول قائل إن لندن وبرلين وبيترسبورغ وغيرها من المدن الكبيرة مراكز كبيرة في العالم، فما قيمة المدينة إزاءها؟ ولكن صاحب هذا القول ينسى أن هذه المدن كانت مزدهرة قبل أن تصبح مراكز عالمية، أما المدينة فلم تكن مدينة كبيرة في أول أمرها، لكنها أصبحت فيما بعد مركز الفتوحات الإسلامية كلها، وذلك بحسب نبأ قرآني أُدليَ به في زمن لم يكن فيه للمسلمين ملاذ يسندون إليه رؤوسهم.

حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾

شرح الكلمات:

حدائق: جمعُ حديقة، وهي البستان يكون عليه حائط. (الأقرب)

أعنابًا: الأعناب جمعُ عِنب، وهو ثمرُ الكَرْم وهو طريٌّ، فإذا يبِس فهو الزبيب. والعنبُ يعني الخمر أيضًا (الأقرب)، وذلك لأن الشيء إذا غلب تأثيره شيئًا آخر سُمّي باسمه، وحيث إن الخمر تُصنَع من العنب سُميتْ باسمه.

التفسير: اعلم أن لفظ ﴿حدائق﴾ بدلٌ من ﴿مفازا﴾، ولكنه عندي ليس بدلَ كُلٍّ، بل هو بدلُ اشتمالٍ.. أي أنه من متعلقات المُبْدَل منه، وكأن الله تعالى يقول: نقص عليكم الآن شيئًا من تفصيل "المفاز" الذي سيناله المتقون كالآتي:

أوّلاً: أنهم سينالون ﴿حدائق﴾. معروف أن الحدائق لم تكن في مكة بل كانت في المدينة، إذًا، فقد رسم الله تعالى بهذه الكلمة صورة المدينة المنورة. لا شك أن العالم كله أصبح فيما بعد حديقة للمسلمين، لكن فيما يتعلق بظاهر الكلمات فهذا الوصف ينطبق على المدينة التي كثرت فيها البساتين. فقد ورد في الحديث أنه لما نزل قول الله تعالى ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾(آل عمران:٩٣) سبق أبو طلحة الأنصاري غيرَه من المسلمين وعرَض على النبي ﷺ حديقة له قائلا: يا رسول الله، إنها أحب مالي إليّ. (البخاري: كتاب التفسير، باب لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون، والترمذي: كتاب التفسير)

وفي رواية عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان جالسًا بين أصحاب له ذات يوم، فقام من بين أظهرنا، فأبطأ علينا، فخشينا أن يكون قد أصابه مكروه. فخرجت بحثًا عنه حتى أتيت حديقة للأنصار، وحاولت دخولها، فلم أجد لها مدخلاً – يبدو أن النبي ﷺ كان قد أغلق وراءه باب الحديقة – فدخلتُها من فتحة من تحت حائطها كما يدخل الثعلب. (مسلم: كتاب الإيمان)

باختصار، كانت في المدينة حدائق كثيرة، وقد أنبأ الله تعالى هنا أن علامة مكان الفوز الذي سيوهب للمسلمين وجود حدائق وأعناب فيه.

لقد سبق أن قلت إن الحدائق تكون محاطة بسور وتكون خاصة بصاحبها، ولولا السور والسياج حول الحدائق لم تُعرف الحدود فيما بينها؛ وعليه فلو اعتبرنا الحدائق هنا بمعنى كل المُلك الذي سيُعطاه المسلمون، فالمراد أن حكومة المسلمين ستكون منظمة لها حدود منيعة تحميها كما يحمي السور الحديقةَ. وقد أشير إلى هذا المعنى

في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾(آل عمران:٢٠١).. أي أيها المؤمنون، عليكم بالصبر، بل يجب أن تكونوا أكثر صبرا من عدوكم، كما ينبغي أن تحموا حدودكم.. أي على الدولة الإسلامية حماية حدودها بتخصيص جنود للثغور يرابطون هناك دائمًا حتى لا تجترئ الدول المعادية على مهاجمتها.

وهناك حديث قد لمح فيه النبي ﷺ إلى معنى الحدائق حيث قال: ألا إن لكل ملكٍ حِمًى، ألا وإن حمى الله محارمه (البخاري، كتاب الإيمان). ومن رعى قريبًا من حمى الملك يوشك أن ترعى ماشيته في الحمى فيعاقَب.. أي أن المؤمن التقيّ يراقب سلوكه ويميز بين الحلال والحرام، ولذلك سمى الله النعم التي يعطيها المؤمنين حديقةً، بمعنى أن المؤمنين كما يراقبون سلوكهم ويفرقون بين الحلال والحرام لوجه الله، كذلك يميز الله بين المؤمنين وغيرهم ويهب لهم الحدائق كجزاء. وحيث إن التقوى الحقيقية تعمل كغذاء وفاكهة للمؤمن وتولد فيه نشوة حب الله أيضا، فقد سُمّيت التقوى أعنابًا أيضا إذ تتوفر هذه الصفات كلها في التقوى، فإنها أولاً: غذاء للمؤمن يتزود به للتقرب إلى الله تعالى، وثانيًا: أن المتقي الحقيقي يصبح سببًا لحدوث انقلاب طيب في الدنيا لأمد بعيد وهكذا تنفع تقواه الدنيا طويلا، كما ينفع الغذاءُ المدَّخر في الجسم طويلا؛ وهذا يعني أن التقوى تمدّ صاحبَها بثمار طازجة من ناحية، كما تنفع كذخيرة لأجياله من ناحية أخرى؛ ولذلك قال داود عليه السلام: "لَمْ أَرَ صِدِّيقًا تُخُلِّيَ عَنْهُ، وَلا ذُرِّيَّةً لَهُ تَلْتَمِسُ خُبْزًا." (المزامير ٣٧: ٢٥)

إذًا، التقوى غذاء ينفع آكله وأجياله التالية أيضًا.

ثم إن التقوى سبب لحب الله تعالى، فكما أن العنب يصنع منه الخمر كذلك فإن التقوى تولّد حب الله تعالى. ثم كما أن شارب الخمر يسكر بشربها، فلا يبالي بخير أو شر، ولا يخاف ضررًا ولا يرجو نفعًا، ولا يقوم بعمل خوفًا أو طمعًا، بل يسلب السُكر لبّه، فيسير في طريق واحد في نشوة، كذلك عندما يسيطر حب الله على قلب إنسان يجعله كالنشوان، فلا يسعى للوصال بالله تعالى خوفًا من ناره ولا يعمل الخير طمعًا في جنته، بل ينمحي من قلبه الإحساس بالخوف والطمع تمامًا، فيحب

الله تعالى ابتغاء مرضاته فحسب. فالحق أن التقوى أيضًا تسكر صاحبها كما تسكر خمر العنب شاربها.

مرة سئل جنيد البغدادي رحمه الله: ماذا ستسأل الله تعالى حين تلقاه يوم القيامة؟ قال: أقول رب لا أرغب في جنتك ولا أخاف نارك، وإنما أحب الإقامة فيما تختار لي. فإذا أردتَ أن تلقيني في النار فأَلْقِني فيها، وإذا أردت أن تدخلني الجنة فأدخِلْني فيها، فإني لا أريد إلا رضاك. (تذكرة الأولياء (بالفارسية) ص ١١، ذكر جنيد البغدادي).

إن علامة السكر والنشوة أن يخلو المرء من الطمع؛ فلا يطمع في خير ولا يخاف من شر، وإنما يصبو لهدف واحد وهو الفوز برضى الحبيب.

باختصار، لقد ذكر الله تعالى هنا لفظ ﴿أعنابا﴾ لأن العنب هو الثمرة التي تنفع شرابًا وثمرًا وغذاءً أيضًا حيث يجفّ ويصبح زبيبا. وقد اختار القرآن الكريم هنا كلمة ﴿أَعْنَابًا﴾ كمثال على وجه الخصوص لينبّه إلى أمر مهمّ ألا وهو أن هذا هو مثل الإيمان أيضًا فإنه يولّد في صاحبه البشاشة ويهبه اللذة ويشحنه بالقوة. كما توجد هذه الأمور الثلاثة في التقوى أيضًا؛ فإنها غذاء، ثم هي غذاء يبقى كذخيرة في نفسه، ثم إنها تولد حب الله تعالى أيضا.. بمعنى أن سكر التقوى يعمل عمل الخمر ويجعل صاحبها نشوانًا في حب الله تعالى، غير أن سكرها لا يحجب العقل مثل الخمر، بل يجلوه.

وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٤﴾

شرح الكلمات:

كواعب: جمعُ كاعب، وهي الناهد من الجواري. (الأقرب)

أترابا: جمعُ تِرْب، وهو مَن وُلد معك، وأكثرُ ما يُستعمل في المؤنث يقال "هذه تِرْبُ فلانةٍ" إذا كانت على سِنّها. (الأقرب)

ونقل السيوطي عن الأزدي: "الأتراب الأسنانُ (أي الذين هم من سن واحدة)، لا يقال إلا للإناث، ويقال للذكور: الأسنان والأقران. وأما اللِّداتُ فإنه يكون للذكور وللإناث، وقد أقرّه أئمة اللسان على ذلك. (تاج العروس)

التفسير: هذه الآية إشارة إلى أن الحافز الحقيقي للعمل لا يتولد في أُمة إلا إذا كان أفرادها كلهم على مستوى متقارب في أفكارهم وحماسهم وهمّتهم، أما إذا كان بعضهم يأتون بالمنجزات العظيمة بينما يظل الآخرون دون هذا المستوى فلن تحرز تلك الأمة نجاحًا كبيرًا. لا بد لإحراز النجاح الكبير أن يكون المستوى العام لأخلاق الأمة متقاربا، أما إذا كان بعضهم بالغًا عنان السماء بينما لا يزال الآخر على الأرض، فلن يكونوا نافعين لأُمتهم بقدر ما يكون أفرادُ أُمة بلغ ٦٠ أو ٧٠ % من أبنائها مترًا واحدًا من الرفعة مثلاً، ذلك لأن رقيهم جميعًا متقارب، وإن كان أقل كثيرًا من الذين بلغوا عنان السماء في رفعتهم. لو كان هناك عشرة أفراد قد بلغ كل واحد منهم مترين من الرقي فهم أفضلُ من عشرة يكون الواحد منهم قد بلغ السماء رفعةً، بينما لا يزال التسعة الباقون على الأرض.

إذًا، فقوله تعالى﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ إشارةٌ إلى أن الله تعالى سيبارك في المسلمين بحيث إنهم يمتازون، حين يصلون إلى مكان فوزهم، بميزة خاصة وهي أن نساءهم سيبلغن مستوى روحانيًا رفيعًا وفي الوقت نفسه يكون مستواهن متقاربًا. ذلك أن كلمة ﴿كَوَاعِبَ﴾ تشير إلى الرفعة، أي أن مستواهن الديني يكون عاليًا وكل واحدة منهن تكون مفعمة بالحماس والرفعة والاتّقاد، بينما تشير كلمة ﴿أترابا﴾ إلى أن رقيّهن سيكون رقيًّا جماعيًّا لا فرديًّا، أي أن حماس كل واحدة منهن في التضحية في سبيل الدين سيكون متقاربا متماثلا، لا أن تبلغ بعضهن الذروة في حماسهن وإخلاصهن، بينما تكون الباقيات غافلات عن واجباتهن. وإن مطالعة التاريخ الإسلامي تدلنا على أمثلة عديدة لنساء أبدين شجاعة وهمّة مذهلتين في الحروب دائمًا. ونجد هذه السمة في المهاجرات والأنصاريات كلهن. يخبرنا التاريخ عن آلاف المسلمات اللاتي قدمن في شتى المعارك نماذج رائعة لصدق قوله تعالى ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ بحيث يتضاءل أمامهن رجالُ هذا العصر.

لا شك أن الله تعالى قد استعمل هنا كلمة ﴿كَوَاعِبَ﴾ الدالة على الحالتين الجسمانية والروحانية، ولكن الحكمة في استعمالها هي أن الله تعالى يتحدث هنا عن قضيتين؛ إحداهما تتعلق بالآخرة، والأخرى بهذه الدنيا، وكلمة ﴿أَتْرَابًا﴾ تغطّي كلتا القضيتين. إنها تغطّي القيامةَ لأن كل إنسان يدخل الجنة وهو شاب، فقد ورد في الحديث أن عجوزًا أتت النبيَّ ﷺ وقالت يا رسول الله، ادعُ الله أن يُدخلني الجنة -ويبدو أنها كانت معتادة على مقاطعة الحديث وكان الرسول ﷺ مشغولا بحديث مهم مع الآخرين - فأجابها إجابة قصيرة على سبيل المزاح، وقال: لن يدخل الجنة عجوز. فولّتْ وهي تبكي، فبعث النبي ﷺ وراءها فقال: إنه ﷺ لم يقصد ما فهمتْ، وإنما يعني أن كل إنسان يدخل الجنة في حالة الشباب لا الشيخوخة. (الشمائل المحمدية للترمذي: باب ما جاء في صفة مزاح النبي ﷺ). ذلك أن المرء لو دخل الجنة - التي هي مكان سرور وحبور - وهو شيخ هرم صارت له أسوأ من الجحيم. ذلك أن المرء يشيب عند بلوغه الثمانين أو المئة، ولو استمرّ شيبه في الجنة لصار بعد عشرين ألف سنة شيئًا ذليلا حقيرا، وربما يصبح كالكُرة، ناهيك أن يتمتع بنعيم الجنة. لذلك لا بد أن يدخل الإنسان الجنة وهو شاب، وأن يبقى فيها شابًّا على الدوام. كذلك سيكون أصحابه في الجنة من زوج وأهل شبابًا أيضًا.

غير أننا لو طبّقنا هذه الآية على هذه الدنيا لكانت الكواعب بمعنى النسوة اللواتي هن شابّات همّةً وجرأةً وشجاعة، وليست شابّات جسديًّا، إذ يصبح المعنى في هذه الحالة كالآتي: إن للمتقين كواعب في البداية، أي أنهن سيكنّ شابات في البداية ولكن سيغزوهن الشيب فيما بعد؛ أو سنضطر للقول أن على المتقين أن يتزوجوا الشابات، وإذا هرمن طلّقوهن إذ لم يعُدْن كواعب، أو لا بد لنا من القول أن المتقين سيجدون نسوة لن يهرمن أبدا في هذه الدنيا؛ ولكن كل هذه المعاني خاطئة، لا بد لنا من أن نفسر هذه الآية تفسيرًا روحانيًّا لا ماديًّا، لأن الله تعالى لم يذكر هنا أي زمن، أعني أنه لم يقل أنهن يكنّ شابات أول الأمر ثم يشِبْن، بل قال إنهن سيظللن كواعب على الدوام، فثبت من ذلك أن الآية لا تعني أنهن يكنّ شابات سنًّا، بل المراد أنهن يكنّ شابات عزيمةً وهمة وشجاعة.

ثم أخبر الله تعالى أنهن، بالإضافة إلى ذلك، يكنّ ﴿أترابا﴾.. أي أن كلّهن متساوياتٍ إخلاصًا وهمّة وشجاعة. والحق أن هذا أفضل إنعام يُعطاه أي قوم، فنساؤهم متحمسات كالرجال، ثم إنهن كلهن يتحلين بالشجاعة والحماس للتضحية من أجل أُمّتهنّ بمستوى متقارب. هذه هي النعمة الحقيقية التي تؤدي إلى ازدهار الأمم. والواقع أن المرأة هي التي تدفع الرجل إلى الجبن. فعندما يريد الخروج لخدمة الدين تقف في طريقه قائلة: أين تتركني؟ من يكون سندًا لي بعدك؟ ثم تأتي بالأولاد وتقول: من يرعاهم بعدك؟ وعندها يصاب قلبه بالقلق والاضطراب وتتزعزع إرادته. أما إذا رفعت المرأة من معنوياته، وشجّعته وحمّسته على الخروج في سبيل الدين، تقوّى قلبه فقام بواجباته الدينية باطمئنان وسكينة. لذا فمن الضروري أن تصل النساء مستوى عاليًا في الدين، كما لا بد أن تتحلى كل واحدة منهن بروح الحماس والتضحية بمستوى متقارب. إن التاريخ الإسلامي مليء بأمثلة من المسلمات اللاتي قدّمن أسوة رائعة في الحماس والجرأة والبسالة في سبيل الدين، وقلن لأزواجهن في موطن الحرب: إذا فررتم من القتال فلا ترجعوا إلينا. ورد في التاريخ أن النصارى شنّوا على المسلمين هجومًا مكثّفًا وبأعداد كبيرة في معركة اليرموك، فلم يستطع المسلمون الوقوف في وجههم واضطروا للانسحاب المؤقت، فأخذت المسلمات أعمدة الخيام ويضربن بها خيل المسلمين الهاربين ليعودوا إلى ميدان المعركة. وكانت من بينهن هند بنت عتبة بن ربيعة، التي كانت من أشد أعداء الإسلام في الماضي، وكان زوجُها أبو سفيان وابنُها معاويةُ من بين المسلمين الفارين. كان أبو سفيان قائد كتيبة من الجيش المسلم، فلما رجع بفرقته تقدمت إليه هند وضربت وجه حصانه بالعمود لترده إلى ساحة القتال قائلة له: كنت تبذل كل ما في وسعك في محاربة النبي ﷺ أيام الجاهلية، فكيف تفر من موطن القتال بعد إسلامك؟ كان حريًّا بك أن تغسل العار الذي لحق بك نتيجة محاربتك الإسلام بالتضحية بنفسك دفاعًا عنه. فلما رأى هو وجنوده هذا المشهد قالوا فيما بينهم: هيّا نعُدْ إلى ساحة القتال، فإن عصيّ المسلمات أشدّ وقعًا من سيوف العدو. فرجع

الجيش وقاتل وانتصر على العدو. (فتوح الشام للواقدي: وقعة اليرموك، تحريض النساء)

فالله تعالى قد أعطى النبي ﷺ حسب وعده ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ جيشًا من النساء اللاتي كنّ أفضل من رجال الأمم الأخرى إخلاصًا وحماسًا وشجاعة، كما كانت كل واحدة منهن بمستوى عال في هذه الخصال وكأنها تتنافس مع الأخريات، وليس أن عائشة كانت شجاعة، ولم تكن كذلك زينب، أو أن زينب شجاعة ولم تكن أسماء كذلك، حتى إن هندًا – تلك المرأة التي كانت تعادي الإسلام من قبل عداء شديدًا – أيضًا قد تحلت بهذه العاطفة والحماس بحيث قدمت للإسلام تضحيات كبيرة. فمن وقائع الحرب المذكورة آنفًا أن المسيحيين لما ضغطوا على الجيش المسلم كثيرًا أصيب المسلمون بإرهاق شديد نتيجة القتال المكثف المستمر، وفي إحدى الليالي خرج قائدهم أبو عبيدة لتفقد الجيش، فوجد شخصين حول الجيش فارتاب في أمرهما وخشي أن يكونا جاسوسين، فتقدم وسألهما: من أنتما؟ فقال أحدهما: أنا الزبير، وهذه زوجتي أسماء بنت أبي بكر. لقد رأيت المسلمين اليوم قد أنهكتهم الحرب، فخرجت أنا وزوجتي نقوم بحراستهم. (فتوح الشام، معركة اليرموك، هزيمة الروم).

ما أدلَّ هذا المثال وما أروعَه على صدق قوله تعالى ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾، وعلى أن زوجات الصحابة كن يتحلين بروح التضحية والفداء مثل أزواجهن! ثم إن هذا الحماس لم يكن خاصا بنساء أسرة معينة، بل وُجدت هذه الروح في كل الصحابيات.

إذًا، فهذا هو المعنى الصحيح، وإلا لا ينطبق قوله تعالى﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ في هذه الدنيا. ذلك أن الفتاة تفقد شبابها بعد ست أو سبع سنوات من الزواج، ولا تُعَدّ بعدها من الكواعب، فثبت أن المعنى هنا روحاني وليس ماديًّا. لا شك أن المعنى المادي ينطبق على الآخرة، لأن الناس لو دخلوا الجنة شيوخًا فلا تُعتبر الجنة جنةً، ولكن لو طبقنا قوله تعالى ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ على هذه الحياة الدنيا فيكون المراد منه نساء يتمتعن بكفاءات وطاقات شبابيّة. ذلك أن البدن المادي يصاب بالضعف

وتبدو عليه أمارات الشيخوخة في هذه الدنيا بمرور الزمن، أما الطاقات الروحانية فلا تضعف في الإنسان إذا أراد تقويتها. فثبت أن الأمر الأهم هو أن تكون نساء القوم مصداقًا لقوله تعالى ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾.

علمًا أن كلمة ﴿كواعب﴾ تشير إلى الشباب الشخصي، أما كلمة ﴿أترابا﴾ فترمز إلى شبوبية الأمة.

ثم إن كلمة ﴿أَتْرَابًا﴾ أيضا تؤكد أن الأخذ بالمعنى الروحاني هو الأنسب، إذ لا معنى ولا حكمة في كون النساء أترابًا في الجنة. كلا بل إن هذه الكلمة تتعلق بهذه الدنيا؛ إذ تُنبه أن رقي الأمة محال بدون أن يكون المستوى الديني لنساء المجتمع عاليًا. يجب أن يتحلين بالهمة والعزيمة والشجاعة، فلا يبالين بالمصائب والشدائد، ويكُنَّ مستعداتٍ لتقديم أي تضحية، ولا يتأخرن عن رجالهن في إخلاصهن وحماسهن وحبهن لدينهن. وهذا المعنى يبلغ من الروعة بحيث يستحق أن يعاد مرارًا وتكرارًا. يجب أن نركز عليه في خطبنا وكتبنا كثيرًا حتى يعلم القوم ما هو المستوى الذي يريد الإسلام أن يوصل إليه نساءنا، وحتى تتحلى نساؤنا بالحماس الديني المنشود. أما لو كانت النساء كلهن بسن واحد في الآخرة فليس في هذا المعنى أي لطافة أو روعة، بل الحق أن كلمة ﴿كَوَاعِبَ﴾ وحدها كافيةً لأداء هذا المعنى. إذًا، فإن إضافة كلمة ﴿أَتْرَابًا﴾ إلى كلمة ﴿كَوَاعِب﴾ دليل على أن هذه الآية تتحدث عن هذه الدنيا.

وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٥﴾

شرح الكلمات:

كأسًا: الكأس الإناء يُشرَب فيه؛ وقيل ما دام الشرابُ فيه، وإلا فهي زجاجة وإناء وقدح. (الأقرب)

دِهَاقًا: الدِهاق من الكؤوس: الممتلئةُ. (الأقرب)

التفسير: لقد ذكر الله تعالى من قبل الأعناب التي تُصنَع منها الخمر، أما الآن فيبين أنهم سيكونون نشوانين بشراب معرفة الله تعالى بحيث لن ينتهي سكرهم ولن تشبع نفوسهم من هذا الشراب الروحاني، بل يشربون الكأس تلو الآخر من دون انقطاع؛ بمعنى أنهم كلما قدّموا تضحية استعدّوا لتقديم تضحية أخرى، ثم ثانية وثالثة، وهكذا، وكأنهم لا يضعون كأس حب الله تعالى من أيديهم شبعًا، بل ستظل الكأس مليئة دائما، وسيعتادون تقديم التضحيات نتيجة سكر العشق الإلهي، بحيث لن تشبع طبائعهم من هذه الخمر.

وحيث إن اللذات في الآخرة روحانية – صحيح أن لها شكلاً ماديًّا أيضًا إلا أن اللذة الحقيقية هناك روحانية – لذا فقوله تعالى ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ ينطبق على الآخرة كما ينطبق على هذه الدنيا أيضا، والمعنى أن قلوبهم ستظل في نشوة دائمة بحب الله تعالى، فلن يتوانوا في تقديم التضحيات، بل يتمنون دائما أن يقدّموا تضحية تلو أخرى ، وإذا أكّدوا حُبَّهم لله تعالى مرة، تَمنَّوا أن يؤكدوه مرة ثانية وثالثة إلى ما لا نهاية له.

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾

التفسير: حيث إن حبّ الله تعالى قد شُبّه بالخمر التي فيها أضرار، لذلك قد أوضح الله تعالى أن حبّه تعالى سيسكرهم كما تسكر الخمر شاربها، ولكن ذلك لا يعني أنهم سيقعون في العيوب التي ينغمس فيها شارب الخمر. فمن أضرار الخمر مثلاً اللغو والتكذيب، أي أن شاربها يميل إلى العبث وهذر الكلام والشجار، ولكن الله تعالى يقول ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا﴾.. أي لن يقع شارب خمر الجنة في الهذيان والهذر. أتذَكّر أنني كنت أتمشى على سقف بيتي مرةً، فسمعت صوت شخص يقول لصاحبه: أتأكل الفلافل؟ ثم سمعت الصوت نفسه مرة ثانية وثالثة، ولكن لم أسمع أي جواب من الطرف الآخر. فنظرت من فوق فوجدتُ أحد السيخ مستندًا إلى جدار يردد هذه الجملة وهو سكران، وكان صاحبه الذي يكلّمه قد

ذهب من عنده وقطع مسافة طويلة، ولكنه كان لا يزال يكرر السؤال نفسه، وظل يردده بعد ذلك أيضًا زمنا طويلا يكون صاحبه قد وصل خلاله إلى قرية أخرى.

فمن أكبر عيوب الخمر أن شاربها يهذي. وعيبها الثاني أن شاربها يميل إلى الشجار والسباب - علمًا أن الكِذّاب مصدر كَذَّبَ، ومعناه أن أحدهما يُكذِّب الآخر، حيث يقول أحدهما: قد قلتَ كذا، فيرد الآخر: كلا، لم أقل - وبسبب هذه العيوب في الخمر يقول الله تعالى عن خمر الجنة ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا﴾.. أي أنهم عندما يُعطَون نعماء الجنة، سواء في شكل كؤوس الخمر أو كؤوس شراب العشق الإلهي، لن يولّد هذا الشراب لغوًا ولا كِذّابًا. إن اللغو يضيّع وقت الإنسان، ولذلك نجد أن الذين يتعاطون الخمر يظلون مشغولين بأعمال هي مضيعة للوقت مثل القمار الذي لا يُلعَب إلا بعد شرب الخمر عادة. ولكن المرء لو تجنَّبَ اللغو، لم يضيّع وقته أوّلاً، وثانيًا لم يفكر إلا في العمل؛ وبالتركيز على العمل يحرز المرء تقدمًا سريعًا، ذلك أنه إذا مال إلى اللغو أضاع وقته في أمور تافهة وفقَد التركيز، لكنه إذا تجنب اللغو تيسر له التركيز ومال إلى عمل بنّاء، وحيث إنه يعتاد العملَ البنّاء ويتجنب اللغو فتزداد فيه قوة الفكر والتدبر، ويصبح دائم التركيز والانتباه إلى كل شيء. وثالثًا أنه بتجنُّب اللغو ينصبّ كل جزء من العمل وكل جزء من الأمة فيما هو نافع؛ ذلك أن المرء إذا تجنّبَ اللغو عمِل ما هو ضروري ومفيد، وإذا قام القوم كلهم بما هو نافع تقدموا بسرعة هائلة.

باختصار، هناك ثلاثة فوائد في تجنُّب اللغو؛ أوّلها: عدمُ ضياع الوقت، وثانيتها: توجُّه الأذهان إلى الغايات دائمًا، وثالثتها: سرعة تقدُّم الأمة نتيجة الأمرين المذكورين.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَلا كِذَّابًا﴾.. أي أن الخمر المادية تؤدي إلى الخصام والشجار، لكن سكر شراب العشق الإلهي يخلو من "الكِذّاب".. أي أنه لن يؤدي إلى خصام ولا شجار بين المسلمين، بل يجعل الواحد منهم مؤيِّدًا ومصدِّقًا للآخر. الحق أن التكذيب يضع الفأس على جذر رقي الأمة، كما يفعل اللغو. إن من لم يعتَد تكذيب الآخرين لا بد أن يحسن الظن بهم، لأن عدم التكذيب يستلزم حسن الظن،

وإذا أحسن المرء الظن بالآخرين فلا بد أن تنعم القلوب بالطمأنينة والسكينة تجاه الآخرين. إن الشر كله نتيجة سوء الظن، إذا اعتاد المرء سوء الظنّ بالآخرين فسيخشى أن تكون زوجته قد سمّمتْ طعامه، وفي هذه الحالة تصبح الدنيا كلها جحيما. هناك عشرات المعاملات الأخرى التي لا بد للمرء من حسن الظن بالآخرين فيها، أما لو ظل فريسة للشك وسوء الظن فسدت معاملاته كثيرًا. ولكن إذا تعامل الناس فيما بينهم بحسن الظن و لم يتنازعوا نعموا باطمئنان القلب، وهذه نعمة عظيمة تتمتع بها الأمة نتيجة حسن الظن. هذه هي الفائدة الأولى لحسن الظن.

والفائدة الثانية أن أفراد الأمة إذا أحسنوا الظن بالآخرين ازدادوا تعاونًا فيما بينهم، وساعدَ بعضهم بعضًا في أعمال البر والتقوى وأشادَ بتعاون الآخرين، وبالتالي مضوا قُدمًا. لو أساء المرء الظن بصاحبه واعتبره عدوًّا له لم يتقدم لمساعدته، أما إذا أحسن به الظن واعتبره صديقًا استعدّ لمساعدته في المحن والشدائد.

إذًا، فالمنفعة الثانية لحسن الظن أن الأمة تزداد تعاونًا.

والمنفعة الثالثة لحسن الظن أن المرء يُقدِم على عمله دون خوف من الناس أن يُفشلوه بإلصاق التهم به، بل إنه يخوض غمار الأخطار نتيجة حسن ظنه بالآخرين. مثلاً إذا كان المرء في محنة وأدرك أن جيرانه سيحضرون لنصرته فورًا ولو بإلقاء أنفسهم إلى الخطر، فسوف يقف هذا في وجه الشدائد بشجاعة، لكن الذي لا يدري ما إذا كان جيرانه أصدقاءه أم أعداءه فلن يقدر على مواجهة المحن. إذًا، فحسن الظن يولد في المرء الجرأةَ عند إقدامه على أي عمل، فيستعد لتقديم أي تضحية من أجل أمته.

قال الله تعالى في وصف الجنة في آية أخرى ﴿لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ﴾(الطور:٢٤)، فجاء هنا بكلمة ﴿تأثيم﴾ مكان ﴿كِذَّابًا﴾ ليبيّن أن الكِذّاب والتأثيم شيء واحد؛ ذلك لأن الكِذّاب يعني تكذيب الواحد الآخر، والتأثيمَ يعني تبادُل الناس التهم فيما بينهم؛ فثبت أن كلتا الكلمتين بمعنى واحد.

جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾

شرح الكلمات:

حسابًا: الحساب: العَدُّ؛ الكافي. (الأقرب)

التفسير: أي تكون لهم هذه النعم جزاءً من ربك.

والمراد من قوله تعالى ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾ أن هذا الجزاء يكون بحساب.

ويُخيَّل مِن ظاهر كلمة ﴿حِسَابًا﴾ وكأن الله تعالى يركز هنا على أن هذا الجزاء يكون بحساب لا بدون حساب، في حين تنص آيات القرآن الأخرى أن الله رحيم ويجزي الناس على أعمالهم أكثر مما يستحقون. إذًا، فهناك تعارُض في الظاهر بين قوله تعالى ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾ وآيات أخرى، حيث يقول الله تعالى إنا نجزي المؤمنين أكثر مما عملوا، بينما يقول هنا إن جزاءهم يكون بحساب!

فليكن معلوما بهذا الصدد أن الحساب يعني أيضًا الكافي كما سبق في شرح الكلمات؛ وعليه فقوله تعالى ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾ يعني أنه عطاء سيسدّ كل حاجة للإنسان. وقد قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: "﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾.. أي كافيًا وافيًا سالمًا كثيرًا. تقول العرب: أعطاني فأحسَبَني، أي كافاني. ومنه حَسْبِي الله، أي الله كافيَّ."

بيد أن هناك معنى آخر وهو أنهم ينالون عطاء كان في الحساب أي في الحسبان سلفًا، بمعنى أن المؤمن كان يدرك أن الله تعالى سيعطيه كذا من الجزاء، لأنه تعالى أخبره من قبل أنه سيعطيه كيت وكيت من النعم. فالمراد من ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾ عطاء كان في الحسبان سلفًا وقد ذكره الله تعالى في أنبائه التي كان المؤمن يرجو تحققها والتي كان الكافر يعلم أن المؤمن قد وُعد بها.

إذًا، فليس المراد من ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾ أنه عطاء محدود معدود، بل المعنى أنه عطاء موعود. ويماثل هذا التعبير قولنا: هذا الشيء محسوب عندي أو مسجل عندي. فالمراد من العطاء الحساب أنه عطاء مسجل مكتوب في الديوان الإلهي، ومذكور في الأنباء السابقة، يعلمه المؤمن والكافر والصديق والعدو جميعًا.

رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ﴿٣٨﴾

شرح الكلمات:

خطابًا: خاطَبَه بالكلام مخاطبةً وخِطابًا: كالَمَه. (الأقرب)

التفسير: قال الله تعالى في الآية السابقة: ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ﴾، والجزاء يتأتى بواسطة صفته "الرحيم"، ومعناه: مَن يجزي صاحب العمل على عمله، بينما ذكر الله تعالى الآن صفته "الرحمن"، ومعناه: من يعطي بدون عمل مسبق؛ فالسؤال الذي ينشأ هنا هو: ما المقصود من ذِكر الله تعالى صفتَه الرحمانية هنا مع أنه قد اعتبر الجزاء نتيجة لصفته الرحيمية في الآية السابقة.

فاعلم أن في ذلك حكمتين، أولاهما التنبيه إلى أن ما أعطاكم الله تعالى قد أعطاكم بحسب صفته "الرحيم"، ولكنه ليس رحيمًا فحسب، بل هو رحمن أيضًا؛ وحيث إنه قد أعطاكم كل هذا بصفته "الرحيم"، فيمكنكم أن تتصوروا ما سيعطيكم بصفته "الرحمن"؛ لا شك أنه سيكون جزاء أكبر بكثير، إذ إنه ليس مقابل عمل منكم، بل يكون وفقًا لصفة الله الرحمن، أي من دون مقابل. وبتعبير آخر، إن الله الذي هو رب السماوات والأرض والذي منحكم هذه النعم بصفته رحيمًا، هو رحمن أيضا؛ وما دام قد أعطاكم، بصفته "الرحيم"، ما يسدّ حاجاتكم كلها بل يزيد، فما بالكم بنعمه التي سيعطيكم بصفته "الرحمن"، وكأنه تعالى يقول لا تظنوا أن هذا آخر ما نجزيكم به، وإنما هو جزاء وفق صفتنا الرحيم، أما جزاؤنا الذي نمنحكم بصفتنا الرحمن، فهو أكثر منه بكثير.

والحكمة الثانية هي أن الله تعالى قد بين بذكر صفة الرحمن هنا أنه برغم أنه قد أطلق على هذه النعم لفظ الجزاء، لكنه في الحقيقية إحسان ومنة منه. وهذا يماثل قول الشاعر "غالب" باللغة الأردية:

جان دى، دى هوئى اُسى كى تهى

حـق تو يه هےكه حـق ادا نه هوا

أي لقد ضحيتُ في سبيل الله بنفسي التي هي عطاء منه، فالحق أنني لم أستطع أداء حقه ﷻ.

إذًا، فكأنما الله تعالى يقول هنا: إننا نسمي هذا العطاء جزاء على سبيل الإحسان، وإلا فلم تكن أعمالكم إلا نتيجة طبيعية لأفضالنا، لا لكفاءاتكم الذاتية. فأنّى لكم أن تحوزوا المكانة التي حزتموها اليوم لو لم ننـــزل القرآن ولم ندلّكم بوحينا على طرق الهدى؟ إنه القرآن الذي بلغ بمحمد ﷺ إلى قمة النبوة. إنه القرآن الذي رفع أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا إلى هذه المكانة السامية. لا شك أن هؤلاء قد قدموا تضحيات كبيرة وأسدوا للدين خدمات جليلة، ولكنها كلها كانت نتيجة صفتنا الرحمن وكتابنا القرآن. ومع أننا سمينا هذا العطاء جزاءً، إلا أنه من واجبكم أن لا تنسوا أنه ليس إلا نتيجة صفتنا الرحمن. ويشبه هذا المعنى قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾(الرحمن:٢-٣).. أي لو لم يُنـــزل الرحمن إليكم القرآن، ولو لم يفتح عليكم هذه العلوم والمعارف، لما بلغتم المكانة التي بلغتموها اليوم.

وقد أشار الله تعالى بقوله ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إلى أن الله الذي أعطاكم هذا الجزاء يملك السماوات والأرض وما بينهما، فإذا أراد تفضّلَ بكل هذه الأشياء على من يشاء. فهذه الكلمات إشارة إلى سعة عطاء الله تعالى.

أما قوله تعالى ﴿لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ فيعني أنه لن يكون لهم خيار ولا قدرة على الكلام مع الله تعالى. نجد في الدنيا أن الإنسان يجبر الآخر بالقوة على ما يريد منه، أو على الأقل يضغط عليه بالقول وإن لم يرضَ به الآخر. فمثلاً بوسع زيد أن يقول لبكر شيئًا، وسواء أرضي بكر بقوله أم رفضه، إلا أن الأول قد تمكن من الحديث معه. أما الله تعالى فهو الوحيد الذي لا يملك الإنسان منه خطابًا أي لا يقدر على الحديث معه، لا في هذه الدنيا ولا في الآخرة.. أما في هذه الدنيا فإن الإنسان يؤمن

بالله تعالى غيبًا، فلا مجال لأن يخاطبه تعالى، أما في الآخرة فهناك أيضا لن يقدر أحد على خطابه تعالى من دون إذنه.

علمًا أن دعاء المرء ربَّه لا يسمَّى خطابًا معه تعالى، لأن الخطاب يعني الحديث وجهًا لوجه، ولا أحد يقدر على الحديث مع الله شفاهًا في هذه الدنيا. والشيء ذاته يحدث في الآخرة حيث يخاطب اللهَ تعالى من يأذن له، ولن يقدر على خطابه من لا يأذن له. إذًا، فقوله تعالى ﴿لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ يعني أنه لن يكون لهم الخيار لخطابه تعالى، وليس المراد أنه لن يكون هناك خطاب مع الله أصلاً.

كما أن قوله تعالى ﴿لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ إشارة إلى صفته الرحمن المذكورة من قبل، حيث نبّه الله تعالى هنا إلى أننا قد أنــزلنا وحْيَنا منّةً على العباد، وليس نتيجة لعمل منهم. لقد بعثنا محمدًا نتيجة رحمانيتنا، ولو لم نبعثه من عندنا ولم نرسل القرآن لما حزتم رقيًا، ولم تنالوا منا جزاء، فثبت أن الجزاء الذي تنالونه إنما هو نتيجة لِوَحْينا؛ ولكن تذكروا قولنا: ﴿لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾.. أي لا يقدر أي إنسان على خطاب الله تعالى بنفسه، إنما اللهُ نفسه يُنــزِل فضله هذا على من يشاء من عباده، إذ لا دخل لقدرة الإنسان أو جهوده في نــزول وحي الله تعالى. وكأن الله تعالى قد بيّن سبب ذكره صفتَه ﴿الرحمن﴾ هنا، حيث يبدو ذكرُها لأول وهلة غيرَ منسجم مع السياق، فقد بيّن بذلك أنكم لم تكونوا قادرين على إحراز هذا الرقي بأنفسكم، بل إن رقيكم مرهون بالعمل بوحينا الذي قد أنزلناه نتيجة لصفتنا الرحمن، إذ لا يقدر إنسان على أن يحظى بوحينا بقوته.

يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾

شرح الكلمات:

الروح: اعلم أن (ال) التعريف تفيد أغراضا شتى، منها الكمال، يقال: أنت الرجل، أي الكامل في الرجولية، إذ تتحلى بكمالات الرجولة فعلاً، أما غيرك

فيفتقر إليها (الأقرب). و (ال) التعريف في ﴿الروح﴾ هنا أيضًا للكمال، والمعنى: الروح الكاملة بين الأرواح.

صوابًا: الصواب: اللائق؛ الحق؛ ضد الخطأ. (الأقرب)

التفسير: اعلم أن قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائكَةُ صَفًّا﴾ يمكن اعتباره ظرفًا لقوله تعالى ﴿لا يملكون﴾ أو لقوله تعالى ﴿لا يتكلمون﴾، والتقدير: لا يملكون منه خطابًا يوم يقوم الروح والملائكة صفًّا، أو لا يتكلمون يوم يقوم الروح والملائكة صفًّا. والتقدير الثاني هو أقرب إلى المعنى الذي ذكرته.

ما المقصود من الروح هنا؟ قال ابن عباس: إنهم أرواح بني آدم، وقال الحسن وقتادة: هم بنو آدم، وقال الشعبي وسعيد بن جبير: المقصود جبريل لقوله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾(الشعراء:١٩٤). بينما قال البعض: خَلقٌ سوى البشر. (ابن كثير، والطبري)

والمعنى الأخير لغو وباطل، والأخذ به خلاف للعقل ما لم يثبت من القرآن الكريم. أما المعاني الأخرى فيمكن أن تنطبق على هذه الآية. فقول ابن عباس ﷺ يكشف أنه لا يقول بكون الحياة في الآخرة بهذه الأبدان، بل يؤكد أن هذه الأبدان تفنى والأرواح الإنسانية هي التي تنال الحياة في الآخرة، ولذلك فسّر الروح هنا بأرواح بني آدم. بينما قال الحسن وقتادة أن الروح هنا بنو آدم، وهذا يعني أنهم يؤمنون أن الحياة في الآخرة تكون بهذه الأبدان المادية.

هناك اختلاف بين المسلمين فيما إذا كان الناس سيُحيَون بهذه الأجسام المادية، أم أنهم سيُعطَون في الآخرة جسما آخر. أما نحن المسلمين الأحمديين فنؤمن أن الأرواح في الآخرة لا بد لها من جسم، ولكنه يكون جسما روحانيا لا هذا الجسم المادي. إن هذا الجسم المادي سيفنى ويصبح ترابا، غير أن الله تعالى سيأخذ من الجسم المادي جُزَيئًا دقيقًا منه – يجب أن يُسمى جُزَيئًا روحانيا في الواقع – وينمّيه ويطوّره ويجعله جسم الإنسان. سيعتبر الإنسان هذا الجسم استمرارًا وتسلسلاً لجسمه السابق، موقنًا أنه نفس الذي كان في الدنيا، ولكنه سيكون جسما آخر في الحقيقة.

وكما قلت، يتضح من قول ابن عباس أنه هو الآخر يرى أن كل إنسان سيُعطى في الآخرة جسمًا روحانيا، حيث فسّر الروح هنا بمعنى أرواح بني آدم وليس بني آدم. ويبدو أن قتادةَ، وهو تلميذ ابن عباس، فكّر أن أستاذه يفسر الروح بمعنى أرواح بني آدم خلاف ما يعتقده هو، لذلك قال: "هذا ما كان يُخفيه ابن عباس" (ابن كثير).. أي أن ابن عباس كان في الواقع يعني من الروح بني آدم، ولكنه أخفى رأيه تحت غطاء هذه الكلمات. والواقع أن ابن عباس ما كان بحاجة إلى إخفاء أي شيء، إنما الواقع أنه كان يؤمن أن كل من يموت يفنى جسمه، وتحيا روحه فقط.

على أية حال، إن جميع هذه المعاني للروح تنطبق على الآخرة لا على الدنيا؛ ذلك لأن هذه السورة، كما قلتُ من قبل، تتحدث عن غلبة القرآن وغلبة الإسلام وعن يوم القيامة، ولكن هذه المعاني للروح لا تنطبق على هذه المواضيع الثلاثة؛ لا شك أنها تنطبق على القيامة، لكنها لا تنطبق على غلبة القرآن أو غلبة الإسلام؛ ولذا سأذكر الآن معنى الروح الذي ينطبق على هذه الدنيا وعلى الآخرة أيضًا، وإليك بيانه.

المراد من الروح هنا الروح الكامل لرسول الله ﷺ، والمراد من اليوم هنا يوم القيامة الذي سيشفع فيه النبي ﷺ. وهذا المعنى ثابت من القرآن الكريم ومن الحديث كليهما. فقد صرح الرسول ﷺ في حديث أن الناس سيكونون في فزع شديد يوم القيامة، فأَخرُّ أمام الله تعالى ساجدًا وأشفع لهم. فثبت أن الروح هنا هو روح النبي ﷺ، والمراد من قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ يوم القيامة الذي يقوم فيه النبي ﷺ والملائكة صفًّا. واعلم أن قوله تعالى ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ أيضًا يبين أن الحديث هنا عن الشفاعة، لأن الشفاعة هي الأمر الوحيد الذي لا يتم إلا بإذن، ولن يقوم بها إلا الذين يأذن الله لهم بها، حيث ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: عندما يأتي يوم القيامة فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون، فيقول الجبّار: بقيتْ شفاعتي (البخاري، كتاب التوحيد). فتثور رحمة الله تعالى، فينجي الكثير من النار.

ورُبَّ قائل يقول هنا: إذا كانت هذه الآية تتحدث عن الشفاعة فلِم لَم تصرّح أن أناسًا آخرين يشفعون بالإضافة إلى الرسول ﷺ؟

والجواب أنك إذا ذكرتَ الملكَ فقد ذكرت وزراءَه وحاشيته كونهم توابع له، فالقول إن الرسول ﷺ سيشفع يوم القيامة يشمل شفاعة الأنبياء والشهداء والصلحاء أيضا؛ لأننا إذا ذكرنا الروح الكامل فقد اندرجت فيه تلقائيًا الأرواحُ التي دونه بما فيها أرواح الأنبياء.

إذًا، فقوله تعالى ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ يدلّ بوضوح على أن الحديث هنا عن الشفاعة، وأن المراد من الروح هنا تلك الروح التي ستقوم بالشفاعة وهي روح الرسول ﷺ وليس غيره.

وقد وقع هذا الحادث في هذه الدنيا أيضًا، فعندما قامت روح الرسول ﷺ قامت معها الملائكة أيضًا، وفي هذه الحالة تُعتبر هذه الآية ذات صلة بالحروب الإسلامية، والمعنى أن محمدا ﷺ عندما يخرج لحرب العدو ستصاحبه الملائكة صفًّا لنصرته، وذلك يماثل قول الله تعالى ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاف مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾(آل عمران:١٢٦)، وعليه، سيُعتبر قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا﴾ إشارةً إلى فتح مكة خاصة. فقد حضر المشركون إلى النبي ﷺ يوم الفتح خائفين وجِلين كشعب منهزم أمام ملِك منتصر، حتى لم يملكوا خطابه ﷺ إلى أن سمح لهم بذلك بأمر من الله الرحمن. لا شك أن مشركي مكة كانوا يستحقون عقابًا شديدًا بحسب مبادئ العدل الإنساني، ولكن الله الرحمن أخبر رسوله ﷺ بأنه قد قرّر العفو عنهم؛ فلما رجاه المشركون أن يعاملهم كما عامل يوسف إخوتَه فعل بهم الرسول ﷺ ما علَّمه الله الرحمن في القرآن في قصة يوسف؛ إذ جعله مثيلا ليوسف عليهما السلام. والحق أن محمدا ﷺ عندما عفا عنهم إنما عفا بأمر من الله الرحمن.

ثم إن هذه الآية تُعتبر إشارةً إلى الموضوع الثالث أيضًا وهو غلبة الإسلام، وعليه فسيُعتبر قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾ إشارةً إلى يوم يقوم فيه محمد ﷺ فاتحًا، ويكون المراد من الملائكة القائمين صفًّا جماعته ﷺ الذين يشبهون الملائكة في

شمائلهم، والمعنى أنه ستقام حكومة إسلامية منظمة في العالم، وسيخاطب محمد ﷺ العالَمَ مباشرةً. وسيكون المراد من قول الله تعالى ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ أنه لن يتكلم في بلاط محمد ﷺ إلا الذين قد أذن لهم الله تعالى، وأنهم لن يشيروا عليه ﷺ إلا بقول صائب. وبتعبير آخر قد أخبر الله تعالى هنا أنه سيعطي محمدا ﷺ جماعةً من أكبر مزاياهم أنهم لن يتكلموا بكلمة إلا بإذن الله، ولن يفعلوا شيئًا إلا بإذن الله، ولن يقولوا إلا ما يتفق وأحكام الله، ولن يعملوا إلا بحسب أوامره ﷻ. أما من سواهم فإنهم يتبعون أهواءهم بغضّ النظر عما أحلّ الله لهم وحرّم، فمثلاً لم يسمح الله بمشاهدة رقص البغايا، ولكنهم يحضرون رقصهنّ، ولم يأذن بسماع الأغاني السيئة الهابطة، ولكنهم يجدون المتعة كلها في سماعها، ولم يأذن الله بإضاعة الوقت في قراءة القصص التافهة، ولكنهم يصرفون معظم أوقاتهم في قراءة الكتب والروايات الهابطة. فكل ما يفعلونه خلاف إذن الله ومشيئته، ولكن الله تعالى قد آتى محمدا ﷺ جماعة لا يتكلمون إلا إذا أذن الله لهم، ولا يقدمون له إلا المشورةَ الصائبة الحقة دونما تملُّقٍ.

إذًا، ترسم هذه الآية لنا صورة بلاط محمد ﷺ.

وفي هذه الحالة لا يراد بقيام الروح قيامًا ظاهرًا، بل يراد به غلبته على الناس، والمراد أنه عندما يقوم هذا الروح الكامل منتصرًا، ويقوم معه الملائكة صفًّا، فلن يتكلم معه إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا.. أي أن أصحابه سيتحلّون بميزة خاصة بأنهم لن يتكلموا إلا إذا أمرهم الله بالكلام، ولن يتكلموا إلا بقدر ما يأذن لهم به، فلن يتفوهوا في مجلس نبيهم ﷺ بلغوٍ، بل سيكون حديثهم خاضعا لأحكام الله تعالى.

وهناك إشارات أخرى في القرآن الكريم إلى هذا المعنى كقوله تعالى ﴿لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾(المائدة:١٠٢).. حيث نهى الله تعالى أصحاب النبي ﷺ عن توجيه أسئلة عابثة، لأن ذلك خلاف لآداب مجلسه ﷺ، فقال لا تسألوا عما لا يرضى الله السؤال عنه، بل اسألوا عما يرضيه تعالى. وهذا نفس ما بينه الله تعالى في قوله ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾.. أي أن صحابة النبي ﷺ

لا يتحدثون في مجلسه إلا ما أذن الله به، ولا يشيرون عليه ﷺ إلا بمشورة صائبة صحيحة لا نفاق فيها، ولا تملق ولا خوف، ولا منفعة شخصية، ولا هوى النفس.

ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾

شرح الكلمات:

الحق: هو الأمرُ المقضيّ؛ الموجود الثابت. (الأقرب)

مَآبًا: المآب: المرجع والمنقلَب. (الأقرب)

التفسير: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ يعني: ذلك اليوم الواقع الثابت. أما قوله تعالى ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴾ فالمآب ما يرجع إليه الإنسان مرارا. لما كان الإسلام يعتبر الله تعالى معشوقَ المؤمن، فقد بين الله تعالى هنا أنكم إذا كنتم صادقين في دعوى العشق، فاتخذوا الله مآبًا.. أي كلما فرغتم من مشاغل دنياكم ارجعوا إليه تعالى، ولا تكنّوا الحب والعشق إلا له. وقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى نفسه في مكان آخر حيث قال ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۞ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾(الشرح:٨-٩).. أي إذا فرغتم من مشاغل الدنيا فارغبوا إلى الله واتخذوه مآبا وارجعوا إليه مرة تلو الأخرى. فمثلاً إذا كان المرء يؤلّف كتابًا فعليه أن يسبّح الله تعالى كلما انتهى من تأليف جملة، وإذا كان يتناول الطعام فعليه أن يحمد الله وهو يمضغ كل لقمة، وهكذا يجب أن يكون الله وحده مآبه، ولا يتوجه حقيقةً إلا إليه ﷻ.

فالآية إشارة إلى أن يوم غلبة الإسلام قريب، ومن الطبيعي أن يتمنى كثير من الناس أن يكون لهم نصيب من هذه العزة، فليعلم هؤلاء أنهم إذا كانوا يتمنون حقًّا أن ينالوا نصيبا من عزة الإسلام، فليتخذوا ربهم مآبا، ولينيبوا إليه مرة بعد أخرى. فكلما فرغوا من مشاغل دنياهم فليتوجهوا إلى ذكر الله تعالى، ويزدادوا حبا له، ويسارعوا إليه ويتخذوه ملاذا. لا يكفي الإنسانَ أن يؤدي الصلوات الخمس يوميًا ويصوم ثلاثين يومًا سنويًا، وإنما ينفعه أن يظل متوجها إلى الله كل حين، ويعود إليه مرة بعد أخرى.

إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾

شرح الكلمات:

أنذرناكم: أنذَرَه بالأمر: أعلَمَه وحذَّره من عواقبه قبل حلوله. (الأقرب)

التفسير: إن قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يدل بوضوح أن الحديث هنا عن غلبة الإسلام وغلبة القرآن وليس عن عذاب الآخرة، حيث استدل الله بشيء على شيء آخر، فقال أنذرناكم عذابًا قريبًا سيكون نزوله دليلا على عذاب بعيد.

أما قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ فهو بدلٌ من ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾، والمعنى أننا نعني من العذاب القريب ذلك اليوم الذي يرى فيه المرء عاقبة أعماله. وليس المراد من الرؤية هنا أنه يراه صدفة، بل المعنى أنه سينكشف عليه بوضوحٍ فشلُه وخيبة آماله وينال جزاء أعماله، ويرى أن المسلمين قد انتصروا، وأن أعداءهم قد خابوا وخسروا وذلوا.

وهذا ما حصل بالفعل، فبانتصار النبي ﷺ رأى الكافرون مصيرهم، ونال المؤمنون جزاءهم، حتى إن ابن أبي قحافة (أبو بكر) تولّى زمام الأمر نتيجة انتصار الإسلام، وإلا فما كان لأبي بكر أن ينال هذه السيادة. لم يكن أبو بكر ﷺ إلا تاجرًا بسيطًا في مكة، ولكن شتان بين هذا التاجر المكي البسيط المحروم من السيادة حتى على مستوى مكة، وبين خليفة يحكم الدولة الإسلامية. عندما توفي النبي ﷺ كان أبو قحافة (والد أبي بكر) في مكة، وكانت وفاته ﷺ قد بثّت الذعر بين المسلمين فكانوا قلقين فيمن يخلفه ﷺ. فلما انتُخب أبو بكر خليفة للرسول ﷺ ووصل هذا الخبر إلى مكة أسرع بعض القوم إلى أبي قحافة وقال له: إن أبا بكر قد صار خليفة المسلمين. فقال أبو قحافة: مَن أبو بكر؟ – أي أنه لم يكن يتصور أن ابنه يمكن أن يصبح خليفة – فقال البشير: هو ابنك. فأخذ أبو قحافة يذكر له أسماء مختلف القبائل ويسأله: هل رضيت بخلافته القبيلة الفلانية؟ فرد عليه في كل مرة بالإيجاب،

حتى سأله: هل رضي بنو هاشم أيضًا؟ قال: نعم. فكبّر أبو قحافة وقال: لا شك أن محمدًا رسول الله، لأن القبائل العربية ورؤساءها لم ترضَ بابن أبي قحافة سيدًا عليهم إلا بتأثير قوته ﷺ القدسية فيهم.○

باختصار، إن قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ يعني أن كل واحد من القوم سيرى عاقبة عمله. وبالفعل فقد رأى الجميع كيف صار زعماء العرب الكافرون أذلّة مهانين، وكيف دخل بنو هاشم وبنو عبد المطلب في طاعة ابن أبي قحافة.

أما قوله تعالى ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ فيعني – نظرًا إلى موضوع الآخرة – أن الكافر حين يرى العذاب يقول في حسرة: ليتني كنت ترابًا ولم أر العذاب.

وأما نظرًا إلى هذه الدنيا فيعني أن الكافر سيقول: يا ليتني كنت ترابًا ولم أرَ هذا الخزي والهوان. وهذا ما حصل فعلاً زمن انتصار المسلمين وغلبتهم، فيمكنك أن تتصور مدى الحسرة التي كانت تعتصر قلوب كبار زعماء مكة ورؤسائها حين رأوا أن العبيد الذين آمنوا بمحمد (ﷺ)، والذين كانوا يحتقرونهم ويزدرونهم ويجرّونهم في شوارع مكة ويسعون للقضاء عليهم صباح مساء، قد انتصروا عليهم، حتى إنهم ماثلون أمامهم الآن أذلة مهانين كالعبيد. لا شك أنهم تمنّوا عندها أن يكونوا ترابًا حتى لا يتعرضوا لهذا الذلّ والهوان والندم. جاء عمر ﷺ مرة إلى مكة في زمن خلافته، فحضر للقائه كبار رؤسائها الذين كانوا من عائلات عريقة شهيرة، ظانين أن عمر ﷺ وقد صار ملِكًا سيُعزّهم لأنه يعرف عائلاتهم وسيستعيدون مجدهم الغابر. وبينما هم يتحدثون معه ﷺ حضر بلال ثم بعد قليل جاء خباب، ثم جاء بعدهما غيرهما من أوائل المؤمنين الذين كانوا في الماضي عبيدًا

○ الرواية التي وجدناها بهذا الصدد هي كالآتي: "لما قُبض رسول الله ﷺ ارتجّتْ مكةُ، فقال أبو قُحافة: ما هذا؟ قالوا: قُبض رسول الله ﷺ. قال: فمَن وَلِيَ الناسَ بعده؟ قالوا: ابنك. قال: أرضيتْ بنو عبد شمس وبنو المغيرة؟ قالوا: نعم. قال: فإنه لا مانعَ لما أعطى الله، ولا معطيَ لما منع الله". (الطبقات الكبرى: ذكرُ بيعة أبي بكر)

لهؤلاء الرؤساء أو لآبائهم، وتعرضوا على أيديهم لأشد الاضطهاد زمنَ قوتهم. فكلما دخل أحد هؤلاء العبيد استقبله عمر بجفاوة وقال لهؤلاء أن يتأخروا ويفسحوا له المكان في صدر المجلس، و لم يزل هؤلاء الزعماء يتأخرون حتى وصلوا الباب.

لم تكن في تلك الأيام صالات كبيرة، وإنما كان المجلس غرفة صغيرة، وحيث إن الغرفة الصغيرة لم تتسع لهم جميعا، فقد اضطر هؤلاء الزعماء إلى التأخر في كل مرة حتى وصلوا أماكن الأحذية. فلما رأوا بأم أعينهم أنه كلما أتى عبدٌ من هؤلاء أمرهم عمر بأن يتأخروا ويفسحوا له المكان حتى وصلوا إلى الأحذية، أصابتهم صدمة شديدة. لقد هيّأ الله تعالى في تلك المناسبة أسبابا لإهانتهم، حيث جاء العديد من هؤلاء المسلمين العبيد واحدا تلو الآخر على فترات، لا دفعة واحدة. لو حضروا مرة واحدة لم يشعر هؤلاء الزعماء بإهانة شديدة. ولكنهم لما اضطرّوا مرارًا للتأخر في المجلس من أجل العبيد أحسّوا بإهانة شديدة لم يحتملوها فخرجوا من المجلس. ولما خرجوا أخذوا يقولون فيما بينهم: انظروا إلى الذلة والهوان الذي لقيناه اليوم! لقد جاء هؤلاء العبيد واحدا تلو الآخر، وفي كل مرة أمرنا عمر أن نتأخر حتى وصلنا إلى مكان الأحذية. فقال أحدهم: مَن المذنب، عمر أم آباؤنا؟ لو فكرتم لوجدتم أن الذنب ليس إلا ذنب آبائنا الذي نلنا عقابه اليوم. فإن الله تعالى لما بعث رسوله ﷺ عارضه آباؤنا، ولكن هؤلاء العبيد آمنوا به، وتحملوا بصبر كل أذى في هذا السبيل. فنحن المسؤولون عن الإهانة التي أصابتنا اليوم في المجلس لا عمر. فقال له أصحابه: صحيح أن الذنب ذنب آبائنا، ولكن هل من سبيل لإزالة وصمة العار هذه؟ ثم تشاوروا فيما بينهم، وقالوا: لا نعرف لذلك سبيلا، تعالوا نسأل عمر. فحضروا مجلسه مرة أخرى، وقالوا: تعلم أنت ونعلم جيدا ما تعرضنا إليه من إهانة في مجلسك. فقال عمر رضي الله عنه: أرجو المعذرة على ما حصل، لأن هؤلاء قوم كان النبي ﷺ يُعزّهم في مجلسه، فكان من واجبي أن أُعزّهم في مجلسي. فقالوا: نحن نعلم أن الذنب ذنبنا، ولكن هل من سبيل إلى غسل هذا العار؟

ليس بوسعنا اليوم أن ندرك مدى النفوذ الذي كان يتمتع به هؤلاء الزعماء في مكة، أما عمر فكان يعلم قبائلهم جيدا، إذ ولد في مكة وترعرع فيها، وكان يعلم

كم كان آباؤهم ذوي عزة ومنعة في مكة! كان يعلم أنه لم يكن بوسع أحد أن يرفع بصره أمامهم. فلما سمع كلامهم تراءت أمامه الأحداث والأحوال الماضية كلها، فغلبته الرقة ولم يستطع الكلام، وإنما رفع يده وأشار بإصبعه إلى الشمال، وكان يعني أن المسلمين يحاربون الأعداء ناحية الشام فلو اشتركوا فيها فربما كفّر هذا عما صدر منهم في الماضي. فخرجوا من عنده، ثم أعدّوا عدّتهم وارتحلوا إلى الثغور حيث كانت تلك الحرب الطاحنة دائرة فخاضوا غمارها، فلم يرجع أحد منهم حيًّا، بل استُشهدوا فيها جميعا كما يذكر التاريخ؛ وهكذا محوا وصمة عار عن قبائلهم. (مناقب عمر بن الخطاب ﷺ للجوزي، الباب الثامن والثلاثون، ذكرُ عدله في رعيته)

هذه هي حسرة هؤلاء الرؤساء الذين كانوا مخلصين ومؤمنين بالرسول ﷺ، فما بالك بالحسرة والندامة اللتين أصيب بهما الكافرون منهم. يمكننا أن نتصور كيف كانوا يموتون كمدًا قائلين ليتنا متنا قبل هذا وكنا ترابًا حتى لا نرى هذا اليوم المشئوم. بوسعنا أن نقدّر الخزي الذي لقِيه الكافرون حين أُرغمت أنوفهم يوم فتح مكة لما رأوا أن القوم – الذين كانوا يؤذونهم بالسباب والضرب والجرّ في شوارع مكة، ووضعِ حجارة كبيرة حامية على صدورهم ليردّوهم عن الإيمان – يدخلون مكة ممتطين جيادهم، بينما كان هؤلاء ينظرون إليهم مختفين في بيوتهم. لا شك أنهم يكونون قد قالوا بلسانهم مرارا: ليتنا متنا قبل هذا ولم نر هذا اليوم المُهين.

باختصار، قد أخبر الله تعالى في أوائل أيام الإسلام نفسها عن الظروف التي سيمر بها الإسلام والمسلمون، وبالفعل قد تحقق قول الله تعالى في حياة القوم الذين اعتبروا تلك الأنباء ضربًا من الخبل حيث رأوا بأم أعينهم أن الوضع انقلب رأسًا على عقب حسب هذه النبوءات.